مشهدُ الطيرِ في البَيَان النَّبَوِيّ

(دراسة تحليلية فنية)

الدكتورة / سماح علي محمد عبدالله

مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بكفر الشيخ – جامعة الأزهر

مشهدُ الطيرِ في البَيَانِ النَّبَوِيّ (دراسة تحليلية فنية)

سماح علي محمد عبدالله
قسم الأدب والنقد ـ كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ـ كفر الشيخ – جامعة الأزهر – مصر
البريد الإلكتروني : samah_ali@azhar.edu.eg

الملخص :

يهدف هذا البحث الموسوم (بمشهد الطير في البيان النبوي : دراسة تحليلية فنية) إلى عرض إحدى الصفحات المشرقة من بيان النبوة ، التي تكشف عن حقيقة الدين الإسلامي الحنيف، ودلائل رحمته –ﷺ– بأضعف المخلوقات، كما تهدف إلى تذوق جمال اللغة، ومحاولة الكشف عن بعض أسراره في بيان النبوة. وحاول البحث الإجابة على عدة تساؤلات منها : هل اختلف مشهد الطير في البيان النبوي عن مشهد الحيوان ؟ وما أنماط مشهد الطير ؟ وكيف وظف النبي –ﷺ– صورة الطير في الإبانة عن كثير من المعاني والغايات ؟ وما أوجه التشابه والاختلاف بين صورة الطير في البيان النبوي ، والشعر العربي؟ ويكشف عن كون لغة النبي –ﷺ– في مشهد الطير – صورة صادقة لبيان النبوة . ومما توصلت إليه الدراسة من نتائج : تنوع مشهد الطير في البيان النبوي إلى ثلاثة أنماط: الحديث المباشر عن مظاهر الرحمة بالطير، والتكليفات الشرعية المتعلقة بالطير، وتوظيف صورة الطير لتقريب وتأكيد غيرها من المعاني . كما وظفت صورة الطير في أكثر من مقام ، منها : التعليم والتهذيب، ومنها : الترهيب، ومنها: الترغيب . كما اتضح أن مشهد الطير في بيان النبوة صورة صادقة من صور بلاغة النبوة، ولكنها تختلف كثيراً عن صورة الطير في الشعر الجاهلي .

الكَلِمَاتُ المِفتَاحِيَّةُ: مشهدُ الطيرِ ـ البَيَانِ النَّبَوِيّ ـ دراسة تحليلية فنية

The scene of the bird in the prophetic statement (artistic analytical study)

Samah Ali Muhammad Abdullah

Department of Literature and Criticism - Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls - Kafr El-Sheikh - Al-Azhar University - Egypt

E-mail: samah_ali@azhar.edu.eg

Abstract:

This research, tagged with (the scene of the bird in the Prophet's statement: an analytical artistic study), aims to present one of the bright pages of the statement of prophecy, which reveals the truth of the true Islamic religion, and the evidence of His mercy - Peace be upon him - to the weakest creatures, as well as aims to savor the beauty of language, and try to reveal some of its secrets in the statement of prophecy. The research tried to answer several questions, including: Is the scene of the bird in the Prophet's statement different from the scene of the animal? What are the bird scene patterns? And how did the Prophet - Peace be upon him - employ the image of the bird in revealing many meanings and purposes? What are the similarities and differences between the image of the bird in the Prophet's statement and Arabic poetry? And it reveals that the language of the Prophet - Peace be upon him - in the sight of birds - is a true picture of the statement of prophecy. Among the results of the study: the diversity of the scene of the bird in the Prophet's statement into three styles: direct talk about the manifestations of mercy to the bird, the legal assignments related to the bird, and the employment of the image of the bird to approximate and confirm other meanings. The image of the bird was also employed in more than one position, including: education and refinement, and among them: intimidation, and among them: incitement. It also became clear that the scene of the bird in the statement of prophecy is a true image of the eloquence of prophecy, but it differs greatly from the image of the bird in pre-Islamic poetry.

Keywords: bird scene - the prophetic statement - a technical analytical study

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على من أوتي جوامع الكلم، وسحر البيان ، وعلى آله وصحبه والسائرين في دربه، والقائمين على نهجه.

و بعـــــــــــد

فسيبقى البيان النبوي هو ذلك النبع الفياض الذي لن ينضب معينه لكل من أراد أن ينهل من منابع الدين الإسلامي وبلاغته العالية ، ويعلّ ، وقد حاولت الإسهام في الكشف عن بعض أسرار هذا البيان، من خلال هذا الموضوع الموسوم (بمشهد الطير في البيان النبوي: دراسة تحليلية فنية) .

أهمية الدراسة ، وأسباب الاختيار.

أولا : الرغبة الشديدة في ارتياد آفاق النص النبوي الشريف؛ للإسهام – ولو بجهد يسير – في الكشف عن بعض وجوه إعجازه ، وبيانه، وتفرده .

ثانياً : عناية الدراسات الإسلامية بالحديث النبوي دون الدراسات الأدبية والنقدية، تلك التي تعتمد على تذوق جماليات النص، والكشف عن أسرارها ، وهي لا تقل أهمية عن دراسة الجانب التشريعي؛ بل هي السبيل الوحيد لفهم هذا الجانب ، فضلاً عن كونها لا تتناول النص من جهة واحدة؛ وإنما تتذوقه فنياً، وبلاغياً ، وتُقلّبه على جميع وجوهه؛ حتى تستنبط كل ما فيه من معان وأسرار .

ثالثاً : قراءة إحدى الصفحات المضيئة في بيان النبوة ، تلك التي تكشف عن الرحمة بأضعف المخلوقات، حتى تجاوزت الرحمة بالحي إلى الإحسان عند الذبح، والإحسان في القتل ، ولعل في عرض هذه الصفحة إسهاماً في رد بعض الهجمات التي تصوب إلى ديننا الحنيف، وإلى نبينا الكريم– ﷺ –، وتصحيحاً لما يتهم به هذا الدين من العنف والقسوة ، وهذه مسئولية الباحثين في اللغة العربية كما هي مسؤولية الباحثين في الدراسات الإسلامية .

خامساً: الكشف عن أوجه الاتفاق والاختلاف في أساليب التصوير بين البيان النبوي ، والشعر العربي .

إشكالية الدراسة :

تحاول هذه الدراسة الإجابة على الأسئلة الآتية:

هل اختلف مشهد الطير في البيان النبوي عن مشهد الحيوان ؟ وما أنماط مشهد الطير في البيان النبوي؟ وكيف وظف النبي -ﷺ- صورة الطير فأحسن توظيفها في الإبانة عن كثير من المعاني والغايات ؟ ، والإبانة عن لغة النبي- ﷺ - في مشهد الطير من ألفاظ وأساليب وصور- التي تعد صورة صادقة لبيان النبوة ونسقه الفريد ، وأخيراً : هل ثمة توافق أو تباين بين مشهد الطير في البيان النبوي والشعر العربي؟

تقسيم الدراسة :

ضمت هذه الدراسة مبحثين مسبوقين بتمهيد ومقدمة ، وتتبعهما خاتمة وفهرسان : أحدهما للمصادر والمراجع ، والآخر للموضوعات ، على النحو التالي :

المقدمة والتمهيد

المبحث الأول : أنماط مشهد الطير في البيان النبوي.

المطلب الأول: مظاهر الرحمة بالطير.

المطلب الثاني: التكاليف الشرعية المتعلقة بالطير.

المطلب الثالث: توظيف صورة الطير .

المطلب الرابع : مشهد الطير بين البيان النبوي ، والشعر العربي.

المبحث الثاني: الرؤية الفنية:

المطلب الأول : الألفاظ

المطلب الثاني : الأساليب

المطلب الثالث: التصوير

الخاتمة : وتضم أهم النتائج والتوصيات .

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

منهج الدراسة :

اتخذت الدراسة من المنهج الفني التحليلي القائم على تتبع مشهد الطير في الكتب التسعة_ مدخلاً لتذوق أدب النبوة ، والكشف عن بعض أسرار بلاغته، وإعجازه ، وتفرده .

الدراسات السابقة :

قلّت الدراسات الأدبية التي تعنى بالبيان النبوي ، واكتفت بما يقدمه باحثو البلاغة من دراسات بلاغية تلقي الضوء – في الأغلب – على أحد علوم البلاغة أو أحد فروعها من خلال الدراسة التطبيقية على أحد كتب الحديث أو موضوعاته .

والحق أن هذا الجهد المشكور ينبغي له أن يُعزّز بدراسات أدبية للبيان النبوي ، تدخل إلى النص من حيث كونه نسقاً فريداً من الكلام العالي، وتحاول أن تتذوق هذا الجمال من جميع وجوهه، ويمكنني القول: بأن ثمة دراسات للبيان النبوي قد أعانتني على إتمام هذه الدراسة – بعد: موسوعة الحيوان والطير لعبداللطيف عاشور– وعنيت الدراسة بالأحاديث الواردة في الكتب التسعة دون غيرها _ ، وبعض شروح الحديث ، وعدد من الدراسات البلاغية لبيان النبوة – وهي الدراسات الآتية:

- الحيوان في الشعر الجاهلي، د / حسين جمعة .
- الطير في الشعر المصري المعاصر : قراءة في العلاقة بين الفطرة والتوظيف الفني ، عماد حسيب محمد .
- صورة أمومة الطير في الشعر الجاهلي ، رسالة ماجستير مخطوطة للباحثة / أماني بنت مسعود القرشي – جامعة أم القرى .

- مخاطبة الطير في الشعر العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري : رسالة ماجستير مخطوطة للباحث / حمد بن علي الحسيني الهاشمي ، جامعة أم القرى .

ولست أزعم أنني قد كشفت عن كل جماليات التعبير ، وأسرار بلاغته في مشهد الطير في البيان النبوي ، ولا أنني استقصيت كل أحاديث الطير ، ولا أنني قلت كل ما يمكن أن يقال ، وحسبي أنني اجتهدت، وحاولت أن أطرق باباً من أبواب الكلام العالي في محاولة لتعليم نفسي وتهذيبها، قبل محاولة الإضافة إلى المكتبة العربية القليل من علم ينتفع به .

والله – سبحانه – من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

تمهيـــد

مشهد – الطير – البيان النبوي

مشهد:

جاء في لسان العرب: المشاهدة: المعاينة، وشهده شهوداً أي حضره، ...، والشهادة والمشهد: المجمع من الناس. والمشهد: محضر الناس.(١)

وقد اتخذ (المشهد) في الدراسات المعاصرة مدلولات عدة ، ترتبط بالفنون وتداخلها، وكان المشهد الشعري، والمسرحي، والدرامي، وغير ذلك.

والمشهد المعني في هذا البحث؛ هو ذلك المقصود من المعاني اللغوية للمادة: شهد، " يرتبط مصطلح المشهد في المعاجم؛ بكل ما يقدم للنظر أو المشاهدة ...، والمشهد يتحدد من خلال الإخبار ، والإعلام ، والمعاينة.."(٢)

وعلى ذلك سيعنى البحث بتتبع حضور ذكر الطير في بيان النبوة في الكتب التسعة .(٣)

الطير:

جاء في لسان العرب: طير: الطيران: حركة ذي الجناح في الهواء بجناحه. والطير: معروف اسم لجماعة ما يطير.(٤) والطير: أحد مفردات الطبيعة التي تفاعل معها الشعراء والأدباء في العصر الجاهلي، وعزز أهميته حضوره في لغة القرآن الكريم،

والبيان النبوي، قال تعالى: " وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة شهد،ج٨، ط٢٠١٤م ،الهيئة المصرية العامة للكتاب– مصر

(٢) المشهد في النص الشعري: من الحضور اللغوي إلى التشكيل الذهني، د توفيق مساعدية، ص٣٢١،مجلة العلوم الإنسانية/ عدد٥١| ٢٠١٩م، الجزائر.

(٣) الكتب التسعة: صحيح البخاري، صحيح مسلم، سن أبي داود، سنن الترمذي، سنن النسائي، سنن ابن ماجه، مسند أحمد، موطأ مالك، سنن الدارمي .

(٤) لسان العرب لابن منظور، مادة: طير،ج٩.

إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .(١)

" وقد شغل الطير الكثير من الفلاسفة ، والمفكرين، وهناك من اتخذه رمزاً لمذهبه، وتداخل معه في حوادث تنم عن قضايا فكرية مهمة، وقد حاز هذا الكائن اهتمام الشاعر العربي منذ بداية التاريخ الشعري حتى عصرنا هذا، فهناك من اتجه لوصف الطائر؛ ليحتل الطائر مساحة واسعة في خيال الشاعر العربي، وهناك من ربطه بظواهر معيشة كان الطائر يمثل عنصرها الأساسي، ومن الشعراء من اتخذه رمزاً معبراً بدلالاته عن معنى أراد أن يعبر عنه، ومنهم أيضاً من شغلته الدلالات الأسطورية للطائر؛ فبدأ يشكل صورته الشعرية، موظفاً تلك الدلالات في مزج فني يربط بينها ، وبين أفق النص." (٢)

وسنرى في المباحث القادمة: كيف كان الطير جزءاً من مفردات البيان النبوي، وصورة من صور الطبيعة، وظفها النبي فأحسن توظيفها، وعني بذكر ما له من حقوق.

نهج البيان النبوي في معاملة غير الآدمي :

جاء مشهد الطير في بيان النبوة امتداداً لمشهد الحيوان ، وكان مشهد الحيوان صورة لا تختلف كثيراً عن صورة الجماد والنبات في البيان النبوي ، فقد أفاض النبي الكريم ـ ﷺ ـ في الحديث عن حقوق الحيوان والنبات والجماد ، كما أفاض في الحديث عن حقوق الآدمي ، ويتأكد لنا ذلك إذا تأملنا قوله –ﷺ– : " في كل ذات كبد رطبة أجراً" (٣) ؛ فجعل الحياة هي العامل المشترك الذي يسوي بين المخلوقات في الحقوق، وإذا كان الغرب قد أقام جمعيات الرفق بالحيوان ، في الوقت

(١) الأنعام / ٣٨.

(٢) الطير في الشعر العربي المعاصر: قراءة في العلاقة بين الفطرة والتوظيف الفني، عماد حسيب محمد،ص٣٨، ط١، ٢٠٠٦م، المجلس الأعلى للثقافة– مصر .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب المظالم، باب الآبار على الطرق إذ لم يتأذ بها ،حديث رقم (٢٣٣٤) ، ج٢،ص٨٧٠ ، تحقيق | د مصطفى ديب البغا، ط٥، ١٩٩٣م، دار بن كثير ، دمشق _ سوريا .

الذي يقيمون فيه مصارعة للثيران، ويستخدمون – في أعيادهم – تلك الألعاب النارية التي تبيد الطير وتروعه، كما يتحدثون بملء أفواههم عن حقوق الإنسان ثم يلقون إليه بالقنابل العنقودية؛ فإننا إذا تأملنا نهج النبي –ﷺ– في معاملة غير الآدمي سنقف– وسيقف معنا من أراد– على الإجابة على هذه التساؤلات: أي فكر قد انتصر للضعيف، وأكد على حقوقه؟ وأي تراث يحمل الرحمة والتراحم بين المخلوقات في أبهى صُورة ؟

إن رحمة النبي الهادي–ﷺ– قد تجاوزت الآدمي إلى غيره ، بل تجاوزت الحيوان إلى النبات ، وتجاوزت النبات إلى الجماد ، فقد روي عن أنس – رضي الله عنه – قال : " صعد النبي –صلى الله عليه وسلم – أُحداً ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان –رضي الله عنهم – ، فرجف بهم؛ فضربه النبي برجله وقال : " اثبت أحد ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان "[1] .

فلم تتوقف علاقة النبي –ﷺ– بجبل أحد عند حد المعجزة التي قد يكون الله –عز وجل– اختص بها نبيه ، تلك التي تقف عند حدود الرجفة احتراماً ومهابة لمقام النبوة؛ وإنما تجاوزت العلاقة إلى ما هو أبعد من ذلك ؛ حيث الارتباط النفسي والروحي بين النبي –ﷺ– والجبل ، فاهتز الجبل طربا للقائه ، وداعبه النبي –ﷺ– بضربه والحديث إليه، وفي كتب السنة عدد من الأحاديث التي تكشف عن علاقة النبي–ﷺ– بالجماد لمن أراد أن يستزيد.

وإذا ما تجاوزنا الحديث عن الجماد إلى الحيوان في بيان النبوة ؛ لا نجد حديثا عن حقوق الحيوان فقط ، بل نجد تكريماً للحيوان من خلال إلزام الإنسان – وهو بني آدم المكرم ، وخليفة الله في أرضه – إلزامه بحقوق الحيوان عليه ؛ بل ومعاقبته على ترك أداء هذه الحقوق ، فقد دخلت المرأة النار في هرة . [2]

(١) صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ،باب : قول النبي –صلى الله عليه وسلم– :(لو كنت متخذاً خليلاً) ، حديث رقم (٣٤٧٢) ، ج٣|ص١٣٤٤..

(٢) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق..، حديث(٣١٤٠) ، ج٣|ص١٢٠٥.

، وحديث النبي –ﷺ– إلى صاحب الجمل خير دليل إذ يقول : " أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ .." [١] ؛فهو مكلف بالرفق بها ، وعدم تكليفها مالا تطيق ، وحمايتها من الأذى .

" ترى ، هل وقفت رحمة (محمد) عند الإنسان وحده ..؟ كلا.. ولقد سعت رحمة (محمد) إلى كل كائن حي ؛ لتدفع عنه الغوائل والشرور ؛ فهذه الكائنات المهيضة من حيوان وطير، بل حشرة ينبض القلب الكبير بحقها في الرحمة، وحقها في الرفق، وحقها في الملاذ؛ فالحيوان جدير بالرحمة، بل لعله أحق بها، وأكثر احتياجاً إليها هذا الذي لا يملك أن يشكو، ويتوجع ، ويقول : رحماكم ..! ... ، بل إنه حين يأمر بقتل حشرة سامة تفترس الناس بلدغها – يجعل المهارة في قتلها مرادفة للرحمة بها، ويرجو الثواب من ربه لمن يجهز عليها في غير إيلام لها . انظروا : (من قتل وزغة في أول ضربة، كتبت له مائة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك .)، إن الوزغة حشرة سامة كالأفعى، والخلاص من شرها ضروري ، ولكن حتى هنا لا ينسى (محمد) فينشئ مثوبة من الله سبحانه جائزة لمن يجهز على تلك الحشرات القاتلة، دون أن يسبب لها ألماً – أي ألم !!– جائزة لمن يصيب الهدف دون أن يبعث منه أنين !! ، ذلك الرفق عند (محمد) هو جوهر الحياة وزينتها" [٢] .

والمتأمل في مشهد الطير في بيان النبوة يلحظ أن حضور الطير فيه أتى تارة في سياق الحديث عن حقوق الطير، وتارة يتحدث عن تكليف شرعي متعلق بالطير، وتارة تجد النبي – صلى الله عليه وسلم – قد اتخذ من صورة الطير رافداً من روافد البلاغة والبيان في التعبير عن مختلف المعاني ، كما استمد القرآن الكريم بعض

(١) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم ، حديث (٢٥٤٩) ، ج٣|ص٢٣، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية –صيدا –لبنان.

(٢) إنسانيات محمد ، خالد محمد خالد، ص٥٠، ط١،٢٠٠٤م، المقطم للنشر والتوزيع – مصر . والحديث في سنن ابن ماجه، ت/ محمد فؤاد عبدالباقي ،كتاب الصيد، باب: قتل الوزغ، رقم ٣٢٢٩، ج٢|ص١٠٧٦، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

صوره من مشاهد الطبيعة ، وكما كانت الطبيعة منبعاً ثراً للشاعر العربي ينهل منه لبناء صوره ومعانيه ويعلّ.

من هنا جاء هذا المبحث على هذا النحو .

المطلب الأول : مظاهر الرحمة بالطير.

المطلب الثاني : التكاليف الشرعية المتعلقة بالطير.

المطلب الثالث : توظيف صورة الطير .

المطلب الرابع: مشهد الطير بين البيان النبوي، والشعر العربي.

المبحث الأول : أنماط مشهد الطير في البيان النبوي

المطلب الأول : مظاهر الرحمة بالطير.

المطلب الثاني : التكاليف الشرعية المتعلقة بالطير.

المطلب الثالث : توظيف صورة الطير .

المطلب الرابع: مشهد الطير بين البيان النبوي، والشعر العربي.

المطلب الأول : مظاهر الرحمة بالطير في البيان النبوي

مشهد الطير في البيان النبوي يعد امتداداً لمشهد الحيوان ، ومظاهر الرحمة بالطير ومراعاة حقوقه شبيهة بما ورد في أحاديث مشهد الحيوان . وأول مظاهر الرحمة الرفق بالطير ، وعدم إيذائه، عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من قتل عصفوراً فما فوقها – بغير حقها – سأله الله –عز وجل – يوم القيامة . قيل: يا رسول الله، فما حقها ؟ قال : حقها أن تذبحها فتأكلَها ، ولا تَقطع رأسها، فيُرمى بها "[1].

ولعل أول ما يسترعي النظر هو استهلال الحديث (بمَن) المتضمنة معنى الشرط ، وهو كثير في القرآن الكريم والبيان النبوي، وأحد الأساليب المهمة في مقام التشريع ، الذي يرتبط فيه الجزاء بالعمل، والعقاب بالترك، فيحسن في مقامات الترغيب والترهيب، كارتباط الشرط بالجزاء، " وقد وظف الحديث النبوي الجملة الشرطية وأحسن استثمار طاقاتها. ولعل طبيعة الحديث الشريف ووظيفته تفسران ذلك ؛ فالرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يكن في أكثر الأحيان يوجه الأمر توجيهاً مباشراً إلى المسلم بأسلوبي الأمر والنهي وما يصاحبهما من حزم وشدة، وإنما يوضح الحقيقة المجردة، ويبين الحكم العام؛ حتى يتيح للإنسان حرية الرأي، واستقلال الفكر؛ ليسأل كل فرد عن عمله، ويتحمل كل امرئ مسئوليته، وأسلوب الشرط أكثر الأساليب التي تساعد على ذلك . فإذا قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – مثلاً: (مَن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) فإنه لم يأمر أحداً معيناً بذلك . بل إنه أمر كل امرئ مسلم ، أرسل الحكم عاماً ، ومن شاء حلف بالله ، ومن شاء صمت، ولذا؛ فإن أسلوب الشرط يعد من خصائص الأسلوب في الحديث الشريف؛ لكثرة وروده، ولتنوع أدواته " .[2]

---

(١) سنن النسائي، كتاب الضحايا، باب : من قتل عصفوراً بغير حقها ، حديث (٤٤٤٥) ،ج٧|ص٢٣٩، من عمل الشيخ عبدالفتاح أبي غدة ، ط٢، ١٩٨٦م، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب – سوريا.

(٢) بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين ، د /عوده خليل أبو عوده ، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م ، ص ٥٠٩–٥١٠، دار البشير ، عمان – الأردن . حديث من كان حالفاً..: صحيح البخاري ، كتاب الشهادات ، باب: كيف يستحلف ، رقم : (٢٥٣٣) .

وقد أتت الأفعال في الجملة بصيغة الماضي المتضمن معنى المستقبل: (قتل)، (سأل)؛ ليخرج الفعل الأول (قتل) عن حدود الزمان الواحد، ويصبح متعلقاً بكل من يفعله في كل زمان ومكان ، وليفيد الماضي (سأله) تحقق وقوع الجزاء بما لا يدع مجالاً للشك ، ولا يخفى جمال اختيار الألفاظ؛ حيث عبر بالقتل لما في ذلك من تعظيم الجرم والتنفير منه ، من خلال لفظ (القتل) التي تحمل معاني العنف والشدة والقسوة مع لفظة العصفور: التي تحمل دلالة الضعف والصغر، ثم اختيار لفظة (سأله الله) دون – على سبيل المثال – حاسبه الله أو عاقبه الله ؛ لما تحمله لفظة السؤال من إثارة التوتر والقلق والخوف التي تتطلب أن يُعد المسئول للسؤال جواباً؛ فموقف السؤال فيه من الترهيب ما فيه، ولا مجال فيه لهزل أو هروب ، قال تعالى : " وَقِفُوهُم إِنّهُم مَسئُولُون " [١] ، وقال – صلى الله عليه وسلم – : " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ...الحديث " . [٢]

وقد سرت في أوصال الحديث ومضات من الغموض الشفيف المحبب الذي عمد إليه النبي –ﷺ– ؛ ليجعل نفس المتلقي قَلِقة شغوفة متأهبة لمواجهة الحكم الشرعي، تجلت في الآتي :

أ- لفظة (فما فوقها) وهي لفظة مخاتلة تحمل المعنى وضده؛ حتى تقطع على المتلقي كل طرق الظنون فيمتنع عن الاقتراب من الفعل، فهي تحمل معنى : ما هو أصغر من العصفور – إن وجد في جنس الطير – ، وتحمل معنى ما هو أكبر منه ، ليصبح النهي عن القتل متضمناً كل طائر من الأصغر إلى الأكبر ، ويتضمن معه غير الطير –أيضاً – مما يذبح ليؤكل .

ب-اختيار لفظة (بغير حقها)؛ ليأتيه السؤال من فوره: فما حقها؟ ، كأن هذا الاستفهام استدراج بقصد إقامة الحجة على السائل، وإلزامه بما كان يجهله؛

(١) سورة الصافات /٢٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب: المرأة راعية في بيت زوجها، حديث رقم (٤٩٠٤) ، ج٥|١٩٩٦.

فيأتي جواب النبي –ﷺ– موضحاً للإبهام، ومفصلاً للإجمال؛ فتتلقفه النفس بعد حالة من التوتر والترقب ؛ فيصبح أكثر تأثيراً ، وأبعد أثراً، وأعمق صدىً .

ويجيب النبي – صلى الله عليه وسلم – على السؤال الذي تعمد إثارته؛ فيقول : (أن تذبحها فتأكلها ، ولا يقطع رأسها ؛ فيرمى بها) ، وهنا يتأكد الحكم ، وتتأكد عظمة الدين الإسلامي الذي سخر الله – عز وجل– فيه كل المخلوقات للإنسان، وأمره بأداء حقها، ثم كفل الرحمة لهذه المخلوقات، وكلف الإنسان برعاية حقوقها في الحياة، وعند الذبح، بل والقتل .

وربما كان حديث النبي –ﷺ– تنبيهاً على ما شاع في المجتمع العربي بما يعرف (بمعاقرة العرب)، وهي ذبح الطيور والحيوانات لغير الأكل عند قدوم الملوك، أو عند حدوث نعمة ، وقد قيل في شرح هذا الحديث : " فيه كراهية ذبح الحيوان لغير الأكل، وقد روي عن ابن عباس– رضي الله عنهما– قال : نهى النبي –ﷺ– عن معاقرة الأعراب . والمراد بها : أن يتبارى الرجلان؛ فيعقر هذا عدداً من إبله، ويعقر صاحبه، فأيهما كان أكثر عقراً؛ غلب صاحبه؛ لئلا يكون مما أهل به لغير الله – سبحانه وتعالى– . قال الخطابي : (وفي معناه ما جرت به عادة الناس من ذبح الحيوان عند قدوم الملوك والرؤساء، وأوان حدوث نعمة تتجدد لهم في نحو ذلك من الأمور) " . (١)

وقد تجاوزت رحمته – كذلك– بغير الآدمي من الحيوان والطير الرفق حال الحياة إلى حال الذبح أو القتل ، قال –ﷺ– : " إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، ولِيُرِح ذبيحته" . (٢)

---

(١) شرح السنة لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، حققه: على محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود ،ط ١٩٩٢م ج٦ ، ص٢٧، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح، وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة .حديث رقم (١٩٥٥) ، تحقيق أحمد بن رفعت حصاري ، وآخرين، ط١٤٣٣،١م، ج٦|ص٧٢، دار طوق النجاة ، بيروت – لبنان.

ينطوي الحديث على مفارقة كبرى بين الذبح والقتل وبين الإحسان، تتأتّى –أولاً– من كون أسباب القتل والذبح –في المقام الأول– رحمة بالإنسان، كما في قتل الآدمي قصاصاً (ولكم في القصاص حياة) [١] ، أو حداً من حدود الله لحفظ النفس والعرض، أو غير ذلك ، وقد امتدت هذه الرحمة بالإنسان إلى قتل الحيوان الضار؛ لخطره على حياة الإنسان، وذبح ما يؤكل من الطير والحيوان؛ لعظيم نفع لحمه على الإنسان ، كما امتدت رحمة النبي –ﷺ– إلى الطير والحيوان من خلال إحسان القتل وإحسان الذبح؛ لتحيا المخلوقات كلها حياة كريمة في ظلال رحمة الله –تعالى– ، وعدله .

وتَتأتّى المفارقة – كذلك – من الأمر بالإحسان في موقف القتل وموقف الذبح ، وهما من أكثر مواطن الشدة والقسوة ، والمتأمل في لغة الحديث يجدها أتت لتعزز قيم الإحسان والرفق ، فاستهل الحديث بلفظة (كتب) مسبوقة بإن المؤكدة ، ولفظ الجلالة ، ومذيلة بقوله: (في كل شيء) ، والمتتبع للفظة (كتب) في السياق القرآني يجدها قد ارتبطت بالتشريعات الكبرى، والتكاليف الإلهية التي تعد رأس الشرع وعموده ، تأمل قوله تعالى : ، (كُتِبَ عَلَيكُم الصِّيامُ) [٢] ، (كُتِبَ عَلَيكُم القِصَاصُ) [٣] ، (كُتِبَ عَلَيكم القِتَالُ ..) [٤] ،(إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابَاً مَوْقُوتَاً) [٥] . وقد عززت الصيغة في الحديث بالتأكيد، وبذكر لفظ الجلالة ، وبالتذييل بجملة تفيد العموم والشمول؛ لتتضافر كل هذه الدلالات على المعنى المراد؛ فتؤكده، وتعلن أهميته . ثم يأتي التكرار ليكون رافداً رئيساً من روافد التأكيد على المعنى المراد من خلال قوله : (الإحسان – أحسنوا – أحسنوا) . ثم اقتران (إذا)

(١) سورة البقرة ، بعض الآية/١٧٩.
(٢) سورة البقرة بعض الآية/١٨٣.
(٣) سورة البقرة بعض الآية /١٧٨.
(٤) سورة البقرة بعض الآية/٢١٦.
(٥) سورة النساء بعض الآية/١٠٣.

الظرفية المتضمنة معنى الشرط بالأمر في تناغم فريد يضفي على أجواء الحديث ألواناً من الحسم والحزم .

ويأتي التناسب في الإيقاع بين الألفاظ: (القتلة / الذبح ، فليحد/ وليرح، شفرته/ ذبيحته) ؛ ليفيد التساوي في الحكم ، والثواب والعقاب، والمساواة في الإحسان بين القتل والذبح على السواء، ويأتي التناسب في الجمل – كذلك- : وليحد أحدكم شفرته / وليرح ذبيحته، فالمساواة في الإيقاع تتبعها مساواة في المعنى ، ويفيد المساواة في الجزاء والعقاب، فإذا امتثل المسلم لأحد الأمرين دون الآخر يقع الخلل، لذا؛ يتوجب عليه الامتثال لهما معاً بنفس الدرجة .

والحديث يتميز بالإيجاز الشديد، وهو من سمات البيان النبوي ، ولا سيما في الحديث عن التشريع الذي لا يحتمل التهاون والتباطؤ، وإنما القوة في التوجيه ، والسرعة في الامتثال، وهذا ما يفيده الإيجاز هنا ، فضلاً عن كون الإيجاز هنا قد يفيد الإسراع والعجلة في إنجاز الأمر في تناسب معنوي مع العجلة في الذبح والقتل وهو مغزى الحديث، حيث سرعة إنجاز المهمة رحمة ورأفة بالحيوان والطير، وقد عزز هذا المعنى اختيار لفظ المرة (قتلة) و(ذبحة) – في رواية النسائي-.

ومن الأحاديث التي وردت في هذا السياق أيضاً ما روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه مرّ برهط من الأنصار، وقد نصبوا حمامة يرمونها. فقال : " لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً ". [1] ،وقد نهى النبي عن قتل شيء من الدواب صبراً. [2]

" والمعلوم من الحديث النهي عن رمي ذوات الأرواح بغير حق لعباً أو تمريناً على الرمي ، رحمة بها من ألم تجده بلا نفع ، وفي تسليط النهي على الجنس

(١) صحيح مسلم ، كتاب الصيد والذبائح ، وما يؤكل من الحيوان، باب : النهي عن صبر البهائم ، حديث : (١٩٥٧) ،ج٦،ص٧٣.

(٢) القتل صبراً : أن يمسك الطائر أو غيره من ذوات الروح يصبر حياً ثم يرمى بشيء حتى يقتل " ، لسان العرب مادة / ص.ب.ر ، ج٨/ ص ١٩٣، ط٢٠١٤م، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

المطلق بشمول محيط خصصته الجملة الاسمية التي تدل على الثبوت بنوع خاص من الأشياء، وهو ما يحس الألم ويصلح للحكم، وتقديم الظرفية على الروح في جملة النعت تأكيد لاحترام جسم الحي ، لحلول الروح فيه، ولا يحقق المعنى المقصود على الوجه الأبلغ أن يقال : " لا تتخذوا ما فيه الروح غرضاً؛ لأن التمهيد بذكر الجنس النكرة يوحي بالشمول أولاً؛ فيعم أفراد مدلوله، ثم يكون التخصيص بعد صارفاً اللفظ إلى المقصود منه، فهو من لواحق ذكر الخاص بعد العام من جهة التأمل، فضلاً على ما يحمل على هذا التنكير من إفادة معنى التحقير أو التقليل؛ إذ يكون المراد لا تتخذوا شيئاً ، أي شيء مهما كان في نظركم قليلاً أو حقيراً – غرضاً– ما دام بسبب من الحياة " . (١)

ومما يعزز هذا المعنى ما روي عن هشام بن زيد: إذ يقول : " دخلت مع أنس بن مالك – رضي الله عنه– على الحكم بن أيوب ؛ فرأى غلماناً أو فتياناً نصبوا دجاجة يرمونها . فقال أنس : نهى النبي –ﷺ– أن تصبر البهائم ." (٢)

وهذا من تجليات الرحمة في بيان النبوة ، وتعزيز لما جاء في الأحاديث من الإحسان إلى الحيوان، ولا سيما في القتل أو الذبح ، فضلاً عن مراعاة المنفعة من الحيوان أو الطير ، تلك التي قد تفوت الآدمي بعدم ذبحه ذبحاً شرعياً.

ولم يتوقف نهي النبي الكريم–ﷺ– عن إيذاء الطير إيذاء بدنياً؛ وإنما تجاوز النهي إلى الإيذاء النفسي ، فقد روي زيد بن خالد أن النبي –ﷺ– قال : " لا تسبوا الديك ؛ فإنه يوقظ للصلاة ". (٣)

والسبّ : الشتم ، وإلحاق الأذى اللفظي بالغير، وهذا الحديث – على الرغم من إيجازه – يعد درساً نبوياً للإنسانية، فالنهي عن السب للطائر ينسحب إلى كل ما سواه من طيور وحيوانات يعود وجودها بالنفع على الإنسان، وفيه – للمتأمل – دعوة

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ، د /كمال عز الدين ، ط١-١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م ، ص٤١٤، دار اقرأ ، بيروت – لبنان.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب / الذبائح والصيد ،باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة ، حديث : (٥١٩٤) ، ج٥| ص٢١٠٠.

(٣) سنن أبي داود ، أبواب النوم / باب ما جاء في الديك والبهائم ، حديث رقم (٥١٠١) ، ج٤|ص٣٢٧.

للتروي والتمهل قبل الغضب والتحدث، كأنه أمر يدعو إلى تحكيم العقل قبل إطلاق الحكم، وخلق التوازن بين الخير والشر، والنفع والضرّ في كل مخلوقات الله – تعالى– ، فأمر بحفظ معروف هذا الطائر وهو (الإيقاظ للفجر) ، والتجاوز عن كل ما قد يسببه من إزعاج بسبب صياحه في أوقات الصلاة ،مثل : وقت السحر، ووقت الظهيرة ، تلك الأوقات التي ربما ينال فيها المرء حظاً من الراحة؛ فيستيقظ منزعجاً بسبب صياح الديكة؛ فيدفع ذلك –البعض– إلى سبابها ، وربما حذف سبب السباب في الحديث الذي ضرب أروع الأمثلة في الإيجاز؛ للعلم به ، أو لسرعة التذكير بجميل صنيع الديك؛ لحمل المتلقي على الإذعان والامتثال .

ولعل أسلوب التوكيد الذي رافق التعليل في قوله : " فإنه يوقظ للصلاة ناسب أسلوب النهي الوارد في بدء الحديث وأصبح مؤكداً له ، " والتوكيد سمة تغلف الحديث النبوي الشريف في الصحيحين . وهي سمة تتفق مع مهمة التبليغ والتعليم التي أداها رسول الله–ﷺ– في مجتمع كانت تغلب عليه الأمية والجهل . فكل ما كان يبلغه النبي كان جديداً ومثيراً للناس الذين يسمعونه ويشاهدونه لأول مرة . ولذا فمن المنتظر أن يكثر تساؤلهم وتتصل مراجعاتهم للنبي – صلى الله عليه وسلم – ، فيضطر من أجل تبليغ الرسالة وأداء الأمانة حق الأداء – من تأكيد القول بأساليب التوكيد المتعددة ". (١)

يقول ابن الرومي في وصف الديك :

- **قوام أسحار مؤذن حارة وصال زوجات كمي مآقط**
- **ينفي مناعسه بنفس شهمة ويشاهد الهيجا بجأش رابط** (٢)

ومن الأحاديث التي وردت عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في النهي عن الإيذاء النفسي للطير: ما روي عن عبدالرحمن بن عبدالله قال : " نزل رسول الله –

(١) بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف ، د/ عودة خليل أبو عودة ، ص ٦٥٥.

(٢) ديوان ابن الرومي ، شرح الأستاذ / أحمد حسن بسج ، ج٢/ص٣١٦، ط٣، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان . والمآقط : ساحات القتال .

صلى الله عليه وسلم – منزلاً ؛ فانطلق إنسان إلى غيْضَة [١] فأخرج منها بيضَ حُمَّر ؛ [٢] ؛فجاءت الحمَّرة ترّف على رأس الرسول – صلى الله عليه وسلم – ورؤوس أصحابه؛ فقال : " ويحكم ! أيكم فجع هذه ؟ " فقال رجل من القوم : أنا أصبت لها بيضاً. فقال – صلى الله عليه وسلم –: " اردده" . [٣]

وقد جاء رد النبي–ﷺ– مستهلاً بالاستفهام المسبوق بقوله : ويحكم ، " والويح كلمة تدور معانيها حول الرحمة والشفقة لمَن تنزل به بلية ، فهي ترحم وتوجع ، وقد يقصد منها التعجب ، وقد يقصد بها الزجر لمن أشرف على الهلكة بخلاف الويل فهو يقال لمن وقع في الهلكة [٤] ؛فهي تقال عند التوبيخ أو العتاب القاسي، أو التعجب من ارتكاب الفعل والشفقة بفاعله، وكل هذه المعاني قد منحت المتلقي شعوراً بجرم ما ارتكب ، وبين ظلال هذه المعاني يصل المخاطب إلى ما نهى الله عنه ، فضلاً عن كون هذه اللفظة تثير انتباه المتلقي وتوقظ حسه ، وتهيؤه لاستقبال ما بعدها من حكم نبوي ، ثم يزداد التشويق وتعلو الإثارة بعد طرح الاستفهام : (أيكم فجع هذه ؟) ، وكثرة الأساليب التي تشوق المتلقي وتضعه يتقلب في أجواء التوتر والترقب، توحي بعظم الأمر وأهمية الكلام الذي سيأتي بعد كل أساليب التشويق ، كأنه استدراج له لاستقبال الكلام؛ فيستقر في النفس حينئذ ويتأكد، ولعل في ألفاظ الحديث ما يعزز ذلك ؛ فعبر النبي الكريم–ﷺ– بلفظ (فجع) بوقعه وجرسه؛ لينفر من ارتكاب هذا الفعل ، ثم استخدم لفظة (أيكم) دون (من)؛ لتوجيه الأمر إليهم

(١) الغيضة : الأجمة . غيض الأسد ألف الغيضة ، والغيضة: مغيض ماء يجتمع فينبت فيه الشجر ، لسان العرب ، ج ١١، ص١٠٩.

(٢) ضرب من الطير كالعصافير ، وجمعها الحمر والحمّر ، والتشديد أعلى ، لسان العرب مادة : ح.م.ر، ج٤/ ص٢٢١.

(٣) مسند الإمام أحمد ، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبدالله بن مسعود، حديث(٣٨٣٥) ، ج٦|ص٣٨٥، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين ، ط١، ٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة– بيروت– لبنان .

(٤) ينظر لسان العرب ،ج١٦/ص ٢٩٥.

واختصاصهم به؛ فلا مجال للإنكار، مما يوحي باستعظام الذنب والشعور بخطورته ، ثم كان إيثار التعبير باسم الإشارة دون الاسم الظاهر فقال: (هذه) ، فالاهتمام بالفعل دون المفعول به ، والتأكيد على النهي عن الفعل مع كل حيوان أو طائر، وليست هذه فحسب ، فضلاً عن الإيجاز المتعمد في هذه المواقف الحاسمة التي يحل فيها النبي–ﷺ– حلالاً أو يحرم حراماً، وعندئذ يرد الفاعل معترفاً ومتلهفاً لمعرفة ما يتوجب عليه فعله ؛ وبنفس السرعة يوجه النبي – صلى الله عليه وسلم – إليه الرد الحازم الموجز : (اردده) ، وقلما نجد أسلوب الأمر في البيان النبوي يأتي موجزاً حازماً متجرداً من كل ما يخفف من غلوائه ، ويهون من حدته؛ حتى تتقبله النفوس بطمأنينة ورضا ، ولكنه يأتي كذلك في مثل هذا الموقف الذي يستلزم شدة وحزماً ، فيأتي الإيجاز، وترك التعليل، والتوضيح دليلاً على قوة الحكم ويكون الامتثال له أوقع في النفس ، فهو أمر لا يتحمل الحوار ، ولا يقبل الجدال بعدما ظهرت آثار تركه جلية للناظرين من خلال الموقف .

وليس أدل على التأكيد على الرحمة بالطير، وعدم ترويعه وإلحاق الأذى المادي أو المعنوي به ؛ من النهي عن إيذاء بيضه ، ففي هذا تتوارى المبالغة في النهي عن الإيذاء المباشر للطير نفسه ، بل قد تجاوز الرسول الكريم –ﷺ– – من فرط رحمته وعظيم إنسانيته – صلى الله عليه وسلم – النهي عن إيذاء بيض الطير إلى تشريع عقاب لمن يؤذي البيض وهو محرم ؛ فقد روي عن معاوية بن قرة عن رجل من الأنصار أن رجلاً أوطأ بعيره أدحى نعام وهو محرم ؛ فانطلق إلى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فقال له : عليك بكل بيضة جنين ناقة؛ فانطلق إلى الرسول–ﷺ– فقال له : هلّم إلى الرخصة، عليك بصوم كل يوم عن بيضة أو إطعام مسكين .." (١)

أي رحمة هذه ! ، وأي إنسانية تلك التي يهتم الشارع فيها بحقوق الطير،

(١) مسند أحمد ،مسند البصريين ، حديث رقم (٢٠٥٨٢) ، ج٣٤| ص١٨٨.

وإيقاع العقوبة بمن يؤذيها نفسياً على الرغم من عدم إدراكها لهذه العقوبة .

ومن مظاهر الرحمة بالطير- أيضاً-:

أن بلغت رحمته-ﷺ- أن أقرّ الاستئناس بالطير، وحث عليه، في رغبة منه ؛ لتوطيد العلاقة بين الطير والإنسان ، وهذا مظهر من مظاهر الدين الإسلامي حتى تتعايش المخلوقات في تناغم وانسجام ، فعلى سبيل المثال : تصيح الديكة؛ لأنها ترى الملائكة- عليهم السلام- ؛ فتوقظ الإنسان للصلاة ، وتكتبه الملائكة من الذاكرين ..، وقد اتخذ القرآن – من قبل – المنهج نفسه ، فأراد بالإنسان خيراً عندما أمره بتأمل أحوال المخلوقات الجامدة والحية ، فضرب الأمثلة بالأرض والزرع والمطر والسحاب والفلك ، وكذا بالطير؛ ليتناغم الكون بتناغم المخلوقات ، وربما ليضعف في الإنسان نزعة التمرد والاستعلاء على بقية المخلوقات، تلك النزعة التي ربما تسوغ له أن يهدر حقوقها بدعوى التفضل ، وتلك هي المصيبة الكبرى التي هبط بسببها آدم – عليه السلام – من الجنة ، ومن ذلك قوله تعالى : " أَوَ لَمْ يَرَوَا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُم صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصِيرٌ " [١] ، وقوله تعالى : " فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرْيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .."[٢]

أما ما روي عنه -ﷺ-من حديث عثمان بن عفان – رضي الله عنه – أنه رأى رجلاً وراء حمامة فقال : " شيطان يتبع شيطانه." [٣] فربما المقصود عدم الانشغال بمؤانسة الطير انشغالاً يعيق الإنسان عن شواغل هي الأهم .

وهذا ما ورد في شرح هذا الحديث، إذ يقول الإمام البيهقي : " ..حمله بعض أهل العلم على إدمان صاحب الحمام على إطارته، والاشتغال به ، وارتقائه السطوح

(١) سورة الملك آية/ ١٩.

(٢) سورة المائدة آية/ ٣١.

(٣) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة ، مسند أبي هريرة- رضي الله عنه- ، حديث رقم (٨٥٤٣) ، ج١٤|ص٢٢١.

التي يشرف بها على بيوت الجيران وحرمهم لأجله" . [١]

ولعل ما يؤيد ذلك ما روي عن أنس – رضي الله عنه– أنه قال : " كان النبي – صلى الله عليه وسلم – أحسن خُلقاً، وكان لي أخ يقال له : أبو عمير – قال أحسبه فطيماً– وكان إذا جاء قال : " يا أبا عُمير، ما فعل النُّغَير ؟ " نُغَر كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيُكنَس ويُنضَح، ثم يقوم ونقوم خلفه ؛ فيصلي بنا ." [٢] والنغير مصغر نغر ، والنغر طائر كالعصفور أحمر المنقار.[٣] والحديث فيه جواز ملاطفة الطير ومؤانسته ، ولا سيما من قِبل الأطفال.

وقد أتى التصغير متلائماً مع مداعبة النبي –ﷺ– للطفل ، وكذلك إيقاع الجملة الذي اعتمد على الجناس بين (عمير و نغير) ، فازدادت خفة وحلاوة يلائمان أجواء المرح والدعابة.

(١) شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي ، تحريم الملاعب والملاهي، تحقيق / د عبد العلي عبدالحميد حامد ،حديث رقم : (٦١١٤) ، ج٨| ص٤٨٠، ط١–٢٠٠٣م، مكتبة الرشد بالرياض – المملكة العربية السعودية .

(٢) البخاري / كتاب الأدب | باب الانبساط إلى الناس، حديث (٥٧٧٨) ، ج٥–ص٢٢٧٠ .

(٣) لسان العرب ، ج١٤/ ص٣٠٩.

المطلب الثاني : التكاليف الشرعية المتعلقة بالطير

أحاديث الأحكام المتعلقة بالطير كثيرة ، منها : ما يحل قتله من الطير – رحمة بالإنسان – ، ومنها: النهي عن التطير ، ومن الأولى: قوله –ﷺ– : " خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم ، –وفي رواية : ليس على المحرم في قتلهن جناح : الحدأة ، الغراب الأبقع ، العقرب ، والفأرة ، والكلب العقور" . (١)

والمتأمل في الحديث يلحظ أن الرحمة التي تستتر خلف أسلوبه تخص الإنسان – أكرم المخلوقات – وحفظ ما يملك مما قد يتعرض للتلف بسبب هذه المخلوقات . وتجلت البلاغة المحمدية في لغة هذا الحديث منذ الاستهلال البارع في قوله : (خمس فواسق)، ذلك التشويق المثير الذي يلفت الانتباه ويوقظ الذهن – وهو كثير شائع في البيان النبوي – ثم أتى العدد نكرة؛ لزيادة الترقب لدى المتلقي، والاستخفاف والتحقير بالمعدود ، وقد جاءت كلمة (فواسق) الفاصلة بين المبتدأ وخبره؛ حتى تزيد حدة الغموض وترفع حالة الترقب والتشويق، فالفسق هو الخروج عن طريق الحق، ولعل النبي–ﷺ– أطلق على هذه المخلوقات هذا الوصف؛ لخروجها على عادة المخلوقات التي سخرها الله– تعالى– لخدمة الإنسان ، وتعديها عليه ببالغ الضرر .

ثم يأتي الخبر بصيغة المضارع (يقتلن) عدولاً عن الأمر، ربما لأن صيغة المضارع تفيد تجدد حدوث الفعل واستمراره واستحضار صورة الحدث ، وهو تجديد للأمر بالقتل ، وربما أتى المضارع بصيغة المبني للمفعول؛ للتأكيد على المفعول به دون الفاعل، فالبناء للمفعول يعطي المفعول به حقاً ليس له ؛ اهتماماً به ، كما يسرع في ذكره قبل رتبته؛ حتى يُبصّر به المتلقي، وربما يعدل النبي –ﷺ– في الطلب عن فعل الأمر إلى المضارع؛ تلطفاً ورفقاً ، ولا سيما الحديث يتناول معاني الرفق بالإنسان، والحرص على حفظ حياته وما يملك ، وهذا لا ينفي ورود الطلب بصيغة الأمر المباشر كثيراً في البيان النبوي في المواقف والسياقات التي لا يغني عنه سواه، وهذا من كمال بيانه –ﷺ–

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحج– باب ما يندب للمحرم وغيره قتله، رقم (١١٩٨) ، ج٤– ص١٧.

ثم يؤكد الحث على الطلب بقوله: (الحل والحرم)، وهو استخدام بارع لهذا المُحسّن البديعي (الطباق) ، وتأكيد على الفعل؛ لأن القتل مع الإحرام ممتنع، ويوجب الكفارة.

ويأتي ذكر المعدود بعد كل أساليب التشويق حتى إذا ما ذكر؛ يستقر في الذهن ، وأتى بالواو التي تفيد المخالفة والمغايرة؛ حتى تؤكد إباحة القتل لكل منها، واستقلاله بالحكم .

كان من عادات العرب المتعلقة بالطير في الجاهلية : التَطيّر، والتشاؤم ، فكان الرجل إذا أراد السفر؛ خرج من بيته، فيمرّ على الطير ؛فيطيّره ؛ فإذا أخذ يميناً؛ مشى في حاجته ، وإن أخذ يساراً؛ رجع . جاء في لسان العرب : " الطائر ما تيمنت به أو تشاءمت، وأصله في ذي الجناح، وقالوا للشيء يتطير به من الإنسان وغيره : طائر الله لا طائرك، فرفعوه على إرادة : هذا طائر الله ، وفيه معنى الدعاء ..قال عز وجلّ : (أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُم عِندَ الله)؛ والمعنى : ألا إنما الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة لا ما ينالهم في الدنيا" . (١)

وفي هذه العادات تعارض صريح مع تعاليم الدين الإسلامي ، فعارضها القرآن الكريم في أكثر من موضع، " ربط القرآن الكريم التشاؤم بالطير في عدة مواضع، مسخراً الخبرة الاجتماعية الراسخة في تفكير الإنسان آنذاك . قال تعالى : (فَإِذَا جَاءتْهُم الحَسَنةُ قَالُوا لنَا هَذه وإِنْ تُصِبْهُم سَيئةٌ يَطَّيَرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُم عِندَ الله ولَكِنَّ أَكْثَرَهم لاَ يَعلَمُون) تظهر هذه الآية صورة مجازية جديدة، ففي قوله تعالى: (أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُم عِندَ الله) استخدم كلمة طائر للاستعارة عند الشؤم ...وفي الآية توجيه رباني يبين فيه أن النفع والضرّ بيد الله –تعالى–، فإلى الله – تعالى– يرجع الأمر كله، فلا تشاؤم أو تفاؤل بإنسان أو طائر، فكلها مخلوقات الله – جل وعلا –، لا حول لها ولا قوة ، والهدف من الآية : تربية النفوس، وتعويدها على

(١) لسان العرب، ج٩/ ص١٧٢، والآية جزء من آية ١٣١من سورة الأعراف.

التفكير العلمي الصحيح، بعيداً عن عالم الخرافات الذي أملته عليهم شياطينهم، وقد أبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي، وأحل محله التفكير العلمي الصحيح" . (١)

وكان موقف النبي-ﷺ- امتداداً لموقف القرآن الكريم؛ فواجه النبي هذه العادة المجتمعية بعدد من الأحاديث، منها : " لا طِيَرة ، وخيرها الفأل." (٢)

ومنها : " أقِرُّوا الطير على مَكِنَاتها " (٣) ، ومنها : ما روي عن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما – عن رسول الله -ﷺ- قال : " (من رجعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) قالوا : وما كفارة ذلك يا رسول الله ؟ قال: – صلى الله عليه وسلم – (أن يقول أحدكم : اللهم، لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك .)" (٤)

فإذا ما حاولنا النظر إلى الصياغة اللغوية للحديث الأول: (لا طيرة ، وخيرها الفأل) ؛ فسيكفينا ماقال صاحب شرح المشكاة : " الضمير المؤنث في قوله : (وخيرها) راجع إلى الطِيَرة ، وقد علم أن الطيرة كلها لا خير فيها ، فهو كقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً – الفرقان |٢٤) وهو مبني على زعمهم، أو هو من نحو قولهم : الصيف أحرّ من الشتاء، أي الفأل في بابه أبلغ من الطيرة في بابها، والحاصل: أن أفعل التفضيل في ذلك إنما هو بين القدر المشترك بين الشيئين، والقدر المشترك بين الطيرة والفأل تأثير كل منهما فيما هو فيه ، والفأل في ذلك أبلغ .." (٥)

(١) صورة الحيوان والطير في القرآن الكريم : دراسة بلاغية ، إعداد الباحثة / أحلام عبدالله سليمان صالح ، إشراف /أ.د خليل عودة ، رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة النجاح الوطنية – نابلس- فلسطين ، ٢٠١٢م ، ص ٨٠،٨١. والآية الكريمة من سورة الأعراف، جزء من الآية : ١٣١.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب الطيرة ، حديث رقم (٥٤٢٢) ، ج٥| ص٢١٧١.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الضحايا، باب في العقيقة ، حديث رقم (٢٨٣٥) ، ج٣- ص١٠٥.

(٤) مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة ، مسند عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنه-، حديث (٧٠٤٥) ، ج١١|ص٦٢٣.

(٥) شرح المشكاة للطيبي ، كتاب الطب والرقى، باب الفأل والطيرة ، حديث (٤٥٧٦) ، ج٩|ص٢٩٧٨. تحقيق د/ عبدالحميد هنداوي، ط١- ١٩٩٧م، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة .

ومما يتناسب به مضمون الحديث ولغته: أسلوب الإيجاز ، وهو أنسب في سياق أحاديث التشريع التي تحل حلالاً أو تحرم حراماً. ولا يستبعد أن يكون الضمير في (خيرها) عائد إلى الطيرة تلطفاً بالمتلقي – إضافة إلى ما مر من قول الطيبي– ، فقد آمن المتلقي بالطيرة والخرافات سنين عدداً ، وأصبحت جزءاً من حياته ومعتقداته ؛ فكان في عود الضمير عليها تدرج في التنفير منها، ويعزز ذلك استخدام أفعل التفضيل في أسلوب الحديث .

وقوله–ﷺ– : " أقروا الطير على مكناتها "، قد شارك الحديث الأول في سمة (الإيجاز) ، ولكنه آثر أسلوب الأمر، وإذا اجتمع الأمر مع الإيجاز؛ فالحديث حينئذ لا يحتمل التباطؤ في التصديق والامتثال ، ولعل الصياغة اللغوية للحديث الشريف تؤكد ذلك ، انظر التعبير بقوله : (أقرّوا)، أي : أبقوا ، فالإيقاع الصوتي للكلمة يضفي على الأسلوب ألواناً من الشدة والقوة والحزم بأصواتها وحركاتها ، وكذلك التعبير بقوله: (مكناتها) دون (أعشاشها) التي توحي بالأمومة والعطف، وعدل إلى هذه اللفظة التي توحي بالاستقرار واللجوء؛ ربما ليعبر من وراء حجاب عن ضعف الطير الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً، فكيف يستدل به على الخير والشر من خلال طرده من أماكنه ؟!

ومن يتتبع ذكر الطير في الهدي النبوي ، ومن قبله القرآن الكريم ؛ يدرك أن المقصود من هذا الحديث لا مطلق النهي عن إيذاء الطير فحسب ؛ وإنما النهي عن التطير والتشاؤم الذي ارتبط لغوياً ونفسياً واجتماعياً بلفظ الطير .

ويأتي الحديث الثالث مختلفاً عن الحديثين السابقين على الرغم من اتفاقهم جميعاً في المضمون وتعلقهم ثلاثتهم بسياق واحد . قال –ﷺ–:" من رجعته الطير عن حاجته فقد أشرك، قالوا : وما كفارة ذلك يا رسول الله ؟ قال : – صلى الله عليه وسلم – أن يقول أحدهم : اللهم، لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك" [1] .

(١) مسند أحمد ، ت/ أحمد محمد شاكر، حديث رقم:(٧٠٤٥) ، ج٦/ ص٤٧٢، ط١– ١٤١٦–١٩٩٥م،دار الحديث، القاهرة.

وقد استهل الحديث بأسلوب الشرط المتضمن للذنب والعقاب ، وهو أقوى من أسلوب الأمر في مثل هذا السياق، حيث يقترن فيه عدم الامتثال للأمر بالعقاب إنذاراً ووعيداً، والتعبير بقوله : (أرجعته) فيه تعريض بضعف المذنب والسخرية منه فكأنه مسلوب الإرادة ، وجواب الشرط أتي في زمن الماضي مسبوقاً بحرف تحقيق؛ ليؤكد الوقوع في الشرك . ولما كانت هذه عادة مجتمعية راسخة ، وليس الخلاص منها بالأمر اليسير ؛ كان السؤال : ما كفارة ذلك ..؟ جاء رد النبي –ﷺ– على السؤال دون استنكار للسؤال أو ازدراء للسائل ، وأجاب قائلا :(أن يقول أحدكم : اللهم ، لا طير إلا طيرك ....)، وأول ما يلفت الانتباه لرد الرسول الكريم –ﷺ–؛ ألوان البديع التي تعانقت في هذا الرد، والتناسب الصوتي الذي يثري الجملة ، ويزيدها حلاوة وطلاوة ، وربما كان هذا مما عمد إليه النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم –؛ حتى يسهل حفظ هذا الدعاء – الكفارة –؛ ليقينه بأن تعلق الإنسان بالخرافات ، وانشغاله بمعرفة الغيب كائن وسيكون، فلا يزال البعض– حتى يومنا هذا – أسيراً لما يعرف بالأبراج والفلك ، ولم تزل الصحف تطالعنا بعنوان : (حظك اليوم.. !)؛ فخشي النبي–ﷺ– على أمته من الوقوع في هذا الذنب الكبير بدافع التطلع والفضول، أو غيره، تهاوناً مع أصل من أصول العقيدة الإسلامية، ومع ورود التنبيه عليه كثيراً في القرآن الكريم ، فسهولة الحفظ كانت إحدى غايات أسلوب البديع ، فضلا عن تأكيد المعنى، وعمق التأثير، وجذب السامع .

وقد اجتمعت مع أساليب البديع بعض الظواهر الأسلوبية والقيم الفنية التي استدعاها الموقف ، فالذنب الواقع هو أكبر الكبائر (الشرك بالله) والعياذ بالله ، ولما كان التطير إشراك الغير مع الله في معرفة الغيب جاءت الكفارة تجديداً للعهد مع الله– عز وجل– بالاعتراف الكامل بالوحدانية من خلال صيغة الحديث التي بدأت بالدعاء الذي يحمل كل معاني الخضوع والتذلل والتجرد من الحول والقوة ، وأفادت صيغة (اللهم) الاعتراف الكامل بوحدانية الله– تعالى– ، ثم أتى أسلوب القصر الذي يعد من أقوى أساليب التأكيد ،" وقد انفرد أسلوب القصر في البيان النبوي

بسمات خاصة اقتضتها أساليب الدعوة ، تعمق المعنى، وتظهره في إطار يناسب درجة أهميته ، ثم لترسيخ المعنى بقيمته في أعماق المخاطبين مع صدقه –أيضاً– في التعبير عن اهتمامات النبي –ﷺ– بما ينفعل به من معان وقيم" . (١)

ثم يأتي معززاً للقصر أسلوب التكرار في: خير – خيرك ، طير– طيرك؛ ليقوي أسلوب القصر، ويجعله أشد وقعاً وتأثيراً فضلاً عن الضمير المضاف إلى : خير وطير وغير، وما توحيه هذه الإضافة من معاني الخضوع والإذعان والتسليم لله – عز وجلّ– .

ولم يكن النبي–ﷺ– لينكر سطوة التقاليد المجتمعية ،– وأنّى له ذلك – وقد كان التدرج في الحكم سمة من سمات الشريعة السمحة ، ونجد أصداء ذلك في بعض أحاديثه التي منها : " ما روي عن ريطة بنت مسلم عن أبيها أنه قال : شهدت مع النبي –ﷺ– حُنَيناً فقال ما اسمك ؟ قلت : اسمي غراب . فقال : بل أنت مسلم" . (٢)

فقد كان رفض النبي – صلى الله عليه وسلم – يرجع إلى ما يحمله الاسم من دلالات نفسية سلبية في المجتمع حينذاك .

(١) السمات البلاغية في بيان النبوة ،د/ صباح عبيد دراز ، ط١– ١٤٢٥هـ– ٢٠١٤م ، ص٢٣٣، مكتبة وهبة – مصر .

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي، باب حفظ اللسان ، فصل في حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه، فصل في حفظ المنطق وما فيه من الأدب، حديث (٤٨٥٩) ،ج٧| ص١٨٦.

المطلب الثالث : توظيف صورة الطير

استعان النبي -ﷺ- بصورة الطير في كثير من المواطن، موظفاً لأغلب الدلالات التي أبان عنها مشهد الطير في عدد من السياقات التي لا تتعلق بالطير نفسه، منها: الترغيب والترهيب .

" التصوير في بيان النبوة يعتمد على عناصر قوية تمكنه من البقاء والاستمرار، وتمده بالحيوية الرائعة ، وقد بلغت تشبيهاته وصوره قمة عالية من الفن البلاغي عز مرتقاها . ولعل السر في ذلك أن تلك الصور مستمدة من الطبيعة نفسها كما استمد القرآن الكريم صوره من الطبيعة، فالسر في خلود تشبيهات القرآن الكريم استمدادها من الطبيعة نفسها، تلك الطبيعة التي ما زالت تشهد مرور الأجيال البشرية وهي ثابتة على حالها ، ومن هنا نلحظ ارتباط الإنسان في أي جيل بهذه الطبيعة التي تمثل المسرح الذي يمثل عليه الجنس البشري دوره في الحياة ".[١]

وقد كثر في البيان النبوي طريق التشبيه في التصوير كثرة تجاوزت طرق البيان الأخرى ، وكان التشبيه طريقاً لتعزيز معان كثيرة لا تتعلق بالطير إلا من خلال وجه الشبه . " وسنرى أن التشبيه النبوي كان أداة تعبيرية عند الرسول – صلى الله عليه وسلم – ووسيلة للبيان، والإيضاح، والتربية، والتهذيب، والتبشير، والترغيب ، والترهيب ، والتزيين، والتقبيح ، وغير ذلك فهو في خدمة الرسالة المطهرة التي غيرت الإنسان بتغيير أعماقه، وتبديل طبائعه بطباع الفطرة، وأخلاق النبوة " . [٢]

وقد كان لمشهد الطير وتوظيف صورته حضور ظاهر في الشعر الجاهلي . [٣] " إن عيش الإنسان العربي في صحراء موحشة – تتردد في أرجائها

(١) إعجاز البيان النبوي ، د/ عبدالحفيظ فرغلي ، ص٣٣، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م ، دار الفكر العربي – مصر ، بتصرف يسير .

(٢) السمات البلاغية في بيان النبوة ، د /صباح دراز ، ص٢٦٦.

(٣) ينظر الحيوان في الشعر الجاهلي ،د /حسين جمعة ، والطير في شعر المفضليات للباحث/ محمد فؤاد نعناع ، وغيرهما

أصوات مختلفة من مخلوقات شتى، ويعيش فيها من الحيوانات والطيور ما يفوق عدد البشر – جعل الإنسان العربي يقف من هذه المخلوقات مواقف مختلفة، وكانت قسوة الحياة ، وقلة الماء والغذاء من أعظم المؤثرات التي وجهت عناية الجاهلي بأنواع معينة من الحيوانات ". (١)

ومن التشبيهات التي جاءت وسيلة للبيان والتهذيب ما روي عن عائشة – رضي الله عنها–: " سأل أناس رسول الله –ﷺ– عن الكهّان، فقال لهم : ليسوا بشيء ! قالوا : يا رسول الله؛ فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرّها في أُذن وليّه قرّ الدجاجة ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة ". (٢)

المقام – كما ذكرت– مقام تعليم لأحد الأمور الملبسة التي تتعلق بالكهان وما يصدر عنهم – أحياناً – من بعض الأقوال والوعود التي تتحقق بالفعل فتوحي بصدقهم ، وتحمل الناس على تصديقهم ، فأراد النبي–ﷺ– أن يطلع الناس على أسرار ما يحدث بكل مصداقية؛ حتى يكونوا بمأمن عن مثل هذه الفتن ، فأكد على ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى : " وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع .." (٣) فنص على سرقة الجن لبعض الكلمات فيأتي بها إلى الكاهن مردداً ومكرراً لما سمع؛ لأنه لا يعلم إلا كلمات قلائل ، وهذا ما يوحي به التعبير ب(قرّ) دون غيرها (٤) ، وفي انتزاع صورة قر الدجاجة ما يفي بالمعنى؛ حيث صوتها الرتيب الممل المتقطع المستمر المتسارع، وفي هذا – فوق جودة التصوير– تعريض بالتهكم من الخادم

(١) صورة الحيوان والطير في القرآن الكريم : دراسة بلاغية، ص٣٤، ٣٥.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ،باب قول الرجل للشيء ليس بشيء، حديث (٥٨٥٩) ، ج٥|ص٢٢٩٤

(٣) سورة الجن / آية :٩.

(٤) قر الكلام في أذنه قرأ: فرغه وصبه فيه ، قال ابن الأعرابي : القرّ : ترديدك الكلام في أذن الأبكم حتى يفهمه، والقر ترديدك الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه . وقر الدجاجة : صوتها إذا قطعته . لسان العرب ،ج١٢/ ص ٦٣.

وسيده ، وإشعار بعجزهما ، وجعجعتهما التي لا تنتج طحناً، ثم يستر الكاهن كل هذه السوءات بستار من الكذب المنمق الملفق؛ حيث عبر بقوله: (مائة كذبة) .

ومن الأحاديث التي وردت في هذا السياق – مقام التعليم والتهذيب-:

ما روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– أنه –ﷺ– قال : " لو توكلتم على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطانا" . (١)

أي: تذهب أول النهار ضامرة البطون من الجوع، وترجع آخره ممتلئة البطون من الشبع . (٢) وفي الحديث تربية للنفس الإسلامية وتهذيب لها ، وغرس قيمة حسن التوكل على الله – عز وجلّ– والتجرد من الحول والقوة مع الأخذ بأسباب الرزق .

وقد ورد النصح مرتكزاً على أسلوب الشرط الذي يحمل التشويق، ويفيد الترغيب. وأتى المشبه به منتزعاً من بيئة العربي وواقعه، فاستحضار مشهد الطير ميسور في نفس كل عربي عاش في هذه البيئة، وتعايش مع كل ما فيها . ولاحظ اختيار كلمة (الطير) عموما، ليشمل كل الجنس في كل زمان ومكان .

ولعل اختيار النبي – صلى الله عليه وسلم – للطير دون بقية المخلوقات من الحيوانات التي تغدو خماصاً وتروح بطاناً؛ لسببين – في رؤيتي – :

الأول : أن الطير أضعف المخلوقات ، وهي تبحث عن أمنها بين الأرض والسماء ، وكثيراً ما يحول ضعفها بينها وبين الصراع على المأكل والمشرب.

والثاني : لأن الطير مضرب المثل في الحركة والسرعة والنشاط والسعي في البكور، يقول امرؤ القيس عن نشاطه وعلو همته :

---

(١) سنن ابن ماجه، ، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين ، رقم الحديث (٤١٦٤) ، ج٢|ص١٣٩٤، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء الكتب العربية – حلب –سوريا.

(٢) خماصاً: الخَمصَان والخُمْصان : الجائع الضامر البطن وجمعها خِماص ،لسان العرب ، ج٥/ ص بطانا: البِطنة هي امتلاء البطن من الطعام ، بطن يبطن فهو بطين . لسان العرب ،ج٢/ ص١٠٤.

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل (١)

وذلك لدفع التوهم بالتواكل، وترك السعي ، كأنما النبي–ﷺ– يريد أن يقول: اسع سعي الطير في نشاط وسرعة وصبر على الرغم من ضعفها ؛ تلق رزقها دون حول منك ولا قوة .

نقل النبي –ﷺ– الأمر المعنوي (حسن الظن بالله والتوكل عليه) نقلاً حياً نابضاً بالحيوية والحركة . والتعبير بالفعل الماضي في قوله: (توكلتم)، و (رزقكم) – على الرغم من تضمنه معنى المستقبل – يفيد تحقق الوقوع تأكيداً عليه، وترغيباً فيه ، بينما عبر بالفعل المضارع في: (تغدو) و:(تروح) حيث التجدد والاستمرار واستحضار صورة الفعل ، فضلا عن الانسجام الصوتي في الطباق بين الفعلين، والتناسب بين الجملتين الفعليتين المتساويتين المناسب للانسجام المرئي لمشهد الطير في السماء، جماعات تسير بنظام وانتظام ، وربما جاء التناسب الإيقاعي للجملتين يفيد حصول النتيجة الحتمية التي تتوقف على تقدّم الأسباب والمقدمات .

ومن ذلك ما روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " إن قلب ابن آدم مثل العصفور ، يتقلب في اليوم سبع مرات" . (٢)

وإذا ما حاولنا تتبع صفات العصفور من خلال بعض الكتب التي عُنيَت بذلك، منها: الحيوان للجاحظ؛ إذ يقول : " والعصفور يتعالى ويطير، ويهتدي ويستجيب ....، وليس في الأرض طائرٌ أحنى على ولده ولا أشد تعطفاً من عصفور . والذي يدل على أن في طبعها من ذلك ما ليس في طبع سواها من الطير الذي تجد من إسعاد بعضهن لبعض ..." . (٣)

ويقول : " والعصفور لا يستقر ما كان خارجاً من وكره حتى كأنه في دوام

(١) ديوان امرئ القيس، تحقيق| عبدالرحمن المصطاوي، ص١٦، ط٢–٢٠٠٤م، دار المعرفة ، بيروت – لبنان .
(٢) شعب الإيمان للبيهقي، حديث(٧٣٩) ، ج٢| ص٢٠٨.
(٣) الحيوان للجاحظ، باب ما يحتاج إلى معرفته _ طبائع مشتركة في الطيور، ج٢| ص٤٢٥، تحقيق محمد باسل عيون السود،ط٢–١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان.

الحركة وصبي . له صوت حديد مؤذ" . [١]

ويؤخذ من كلام الجاحظ : أن العصفور مخلوق كثير الاضطراب والحركة الحسية والمعنوية كتقلب قلب ابن آدم الذي يحمل كل المفارقات والتناقضات والاضطرابات ، فتتنازغه دائماً الأفكار والأهواء؛ فلا يدوم على حال تكون له .

ولعل في التعبير بقوله : (ابن آدم)- عليه السلام- استدعاء لقصة سيدنا آدم مع الشيطان؛ فالمقام يوضح تقلب قلب ابن آدم بين نوازع الخير والشر ، تلك التي تكون نتيجة لمدى انسياق الإنسان خلف دينه ومعتقده وفطرته السوية تارة، وانسياقه خلف هوى النفس والشيطان تارة أخرى ، وقد ورد ذكر ابن آدم في القرآن الكريم في سياقات شبيهة بهذا السياق ." وفي نداء الله عباده بقوله : (يا بني آدم) في أحد المواضع تذكير بقصة آدم عليه السلام ومكيدة الشيطان وعداوته له ، الشيطان الذي عصى أمر ربه؛ فغوى، ثم حسد آدم على تشريف الله له؛ فكاد له حتى أخرجه من الجنة، ففي هذا تذكير وتنبيه على عداوة الشيطان الأبدية لذرية آدم عليه السلام". [٢]

وتجدر الإشارة في الحديث الشريف إلى التعبير بقوله : (سبع) مرات ، وقد كثر ذكر العدد سبعة كثرة ملحوظة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، يقول الإمام ابن القيم عن ذكر هذا العدد في البيان النبوي : " أما خاصية السبع ، فإنها قد وقعت قدراً وشرعاً، فخلق الله – عز وجلّ- السماوات سبعاً والأرضين سبعاً ، والأيام سبعاً، والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار ، وشرع الله الطواف لعباده سبعاً ، وتكبيرات العيدين سبعاً في الأولى ، ..فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره ، والسبعة جمعت معاني العدد كله وخواصه .." . [٣]

---

(١) السابق، بعض خصال الطير، ج٥| ص١٢٤.

(٢) دلالة الأساليب الإنشائية في القرآن الكريم : النداء أنموذجاً ، رسالة دكتوراه مخطوطة للباحثة / سعاد دزدام ، جامعة وهران بالجزائر ، ٢٠١٨_٢٠٢٠م، ص٤٩.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية ، حققه شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط،ط٣، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، ج٤/ ص٩٠، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان .

وفيما ذكره الإمام ابن القيم ما يستحثني على القول: بأن ذكر هذا العدد في الحديث السابق له دلالة شبيهة بما ذكره الإمام ابن القيم ، وهي كون هذا العدد جامعاً لكل أنواع الأعداد فيوحي بالكثرة العددية، وربما يحمل إيحاء بالأهمية والانتباه للمعنى؛ لكثرة دورانه في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وفي ذلك تحذير من اتباع الشهوات والهوى ، وتنبيه لتتبع القلوب بالسقيا من نبع الإيمان بالله– تعالى–، والقرب منه .

ومن توظيف صورة الطير في سياق التهذيب والتعليم: ما روي عن النبي –ﷺ–

" أنه نهى المصلي عن نقرة الغراب،.." . [1] يعني: السرعة في أداء أركانها وهيئاتها بمقدار وضع الغراب منقاره فيما يريد التقاطه من طعام. وقد اتخذ التصوير هنا طريق الاستعارة دون التشبيه؛ للمبالغة في إلصاق وجه الشبه بالمشبه؛ حتى يراجع نفسه، ويدرك شناعة فعله ، لأن الصلاة أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين .

ولعل في اختيار كلمة (الغراب) بكل ما يحمل من دلالات نفسية مجتمعية سيئة ما يعزز ذلك .

ومن الأحاديث التي وردت في مقام التربية ، وسياق التهذيب حديث عامر الرام أخي الخضر قال: بينما نحن عند رسول الله–ﷺ– إذ أقبل رجل على كساء ، وفي يده شيء قد لف عليه طرف كسائه، فقال: يا رسول الله، إني لما رأيتك أقبلت فمررت بغيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهنّ فاستدارت على رأسي ، فكشفت لها عنهن، فوقعت عليهن، فلففتها معهن، وها هنّ فيه معي . فقال:– صلى الله عليه وسلم– (ضعهنّ عنك) ، فوضعتهن وأبت أمهنّ إلا لزومهنّ، فقال النبي : –ﷺ– أتعجبون لرحمة أم الفراخ فراخها؟ قالوا : نعم يا رسول الله .قال :– صلى الله عليه وسلم– (فو الذي بعثني

(١) مسند الإمام أحمد، أحاديث رجال من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم–، حديث (٢٣٧٥٨) ، ج٣٩|ص١٦٩.

بالحق نبياً؛ لَلّه أرحم بعباده من أمّ هؤلاء الأفراخ بفراخها، ارجع بهنّ حتى تضعهن من حيث أخذتهن)، فرجع بهن وأمهنّ ترفرف عليهن ". (١)

فالحديث فيه إشارة إلى الرحمة بالطير، و تراحم الطير، وكونها جزءًا من رحمة الله –عز وجل–، وتجدر الإشارة إلى أن الحديث عن أمومة الطير له حضور مكثف في الشعر الجاهلي ، " وشعراء الجاهلية اهتموا بحياة الإنسان، وعرضوا في أشعارهم قضايا هذا الإنسان، ومشاكله في الحياة من حيث السعادة والحزن، وقد كان للشعراء ألسنة ينطقون بمشاعر الجماعة ، فالشاعر يتأثر بما حوله، فتجيش نفسه بمشاعر الناس؛ فتصوغ هذه المشاعر قصائد ينشدها جماعته؛ فتجد هذه الجماعة مشاعرها؛ لأنه هو اللسان الناطق، وهنا تأتي أمومة الطير في القصيدة متضمنة مقصد القصيدة ومراميها البعيدة، وأسرارها المخبوءة، ولذا على الناقد أن يوليها الاهتمام كله؛ فهي قلب القصيدة النابض وفيها يبوح الشاعر بما لم يصرح به". (٢)

وحديث النبي –ﷺ– آثر التعبير بالتشبيه الضمني؛ فوظف هذا المشهد المحسوس في توضيح الصورة غير المحسوسة– في الغالب– ، وهي رحمة الله– تعالى– بعباده التي تجاوزت أقوى صور الرحمة على الأرض، والمتمثلة في رحمة الأم بولدها، والطير بفراخها، ولما تجاوزت رحمة الله–تعالى– كل صور الرحمة المحسوسة، عجزت طرق البيان عن التعبير عنها، ومن ثم استعان النبي الكريم –ﷺ– بأسلوب التفضيل الذي يُسهم في تقريب صورة غير المحسوس ودرجته، ولم يكتفِ النبي–ﷺ– باستحضار صورة أمومة الطير المحسوسة التي تعجب منها الحاضرون، ولا بالسؤال عنها حتى يقع المعنى في النفس، ولا باستخدام أفعل التفضيل فحسب؛ وإنما صدر الكلام بهذا القسم الذي اعتمد فيه على صيغة تناسب

(١) سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب الأمراض المكفرة للذنوب، حديث(٣٠٨٩) ، ج٣| ص١٨٢.

(٢) صورة أمومة الطير في الشعر الجاهلي بحث مخطوط لنيل درجة الماجستير، إعداد الباحثة/ أماني بنت سعود بن خيشان القرشي، جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية، ١٤٣٦هـ، صـ١٣٠، ١٣١.

المقام:(والذي بعثني بالحق نبياً) في إشارة قريبة إلى بعض مظاهر رحمه الله – تعالى– في الأرض، وهي البعثة النبوية، ورسالة النبي –ﷺ– التي جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينْ) (١)

" والصحابة – رضوان الله عليهم– يجزمون بصدق الرسول –صلى الله عليه وسلم– في كل قول يقوله، فهو لا يقسم– وحاشاه– ليجتذب القلوب لتصديقه، وقد كان قبل الرسالة يوصف بالصادق الأمين، وقالت له قريش يوم جمعهم في مستهل الرسالة : ما جربنا عليك كذبا . إذاً ينصرف وجه اليمين إلى أن المحلوف عليه من الأمور المهمة ذات البال التي ينبغي أن يستشرف لها السامع ، ويتلقاها تلقي الاهتمام لما تعيه من مدلول ديني خطير في حياة الفرد والمجتمع" . (٢)

وربما كان التأكيد على توضيح هذا الأمر بأكثر من وسيلة والإلحاح عليه في أكثر من موضع في البيان النبوي؛ يرجع إلى كون رحمة الله بعباده في الحياة الدنيا خفية الظهور، وربما تغيب ملامحها في مظاهر التكاليف الشرعية التي في ظاهرها الشدة ، وفي ظاهر بعضها القسوة: مثل الجهاد، والقصاص، وحدود بعض الكبائر، فضلا على ادخار الله –تعالى–رحمته بعباده ليوم هُم فيه في أمس الحاجة إليها، يوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه.

ومن السياقات التي وظف النبي– صلى الله عليه وسلم– فيها صورة الطير؛ مقام الترغيب ، ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة– رضي الله عنه– أن النبي– صلى الله عليه وسلم – قال: مَن اغتسل يوم الجمعة، ثم راح في الساعة الأولى؛ فكأنما قرّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية؛ فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة؛ فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة؛ فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة" . (٣)

---

(١) سورة الأنبياء آية/١٠٧.

(٢) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ،ص ١٠٦.

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجمعة ، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، رقم / ٨٥٠ ، ج٣|ص٤.

في الحديث ترغيب في الاغتسال، والمبادرة بحضور الجمعة، من خلال ذكر ما يترتب على الالتزام بهذا العمل الصالح، الذي يدل على توقير المؤمن لهذه الشعيرة الإسلامية، وحرصه عليها، ويلاحظ أن الجزاء قد أتى مرتباً على سبيل التدلي[١] ، فبدأ بترتيب الساعات مع ترتيب الدرجات من الأكبر إلى الأصغر، وأتى أسلوب الحديث مناسباً لموضوعه ومضمونه؛ فتصدر الاسم الموصول المقترن بالفعل (اغتسل) ،ثم (راح) ؛ ليفيد عموم المسلمين، ثم استخدم أداة التشبيه (كأن)، وتكرارها يوحي باستحضار وجه الشبه، وتأكيد التشبيه لزيادة الترغيب في الأمر.

" (وكأن) تتميز بمجيئها في كل تشبيه فيه غرابة ناشئة من بعد المشبه به في المشبه؛ لذلك عندما تكون (كأن) مكفوفة ب (ما)، ولهذا من الشواهد القرآنية الكثير (حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِين بِهِ وَمنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّماءِ ..). شبه الله تعالى المشرك في تذبذبه وتردده على ضلالات مختلفة، بمن تتخطفه الطير وتتوزعه، أو شبهه في حال تمسكه بضلاله وعدم الرجوع عنه بالساقط في أهوية لا يخرج منها أبداً، باقياً في قرارها السحيق" . [٢]

ولعل استخدام أداة التشبيه (كأن) في هذا الحديث؛ يرجع إلى البون الشاسع بين العمل والجزاء؛ حيث يرتبط أجر القربان بعمل عظيم، فيه بذل وتضحية، فلما كان الأمر يرتبط بالذهاب إلى أداء هذه الشعيرة الإسلامية مبكراً بعد الغسل والتطيب، وهي من الأمور التي ليست بحاجة إلى جهد أو إنفاق؛ كان استخدام (كأن) مناسباً لزيادة الترغيب، ولا يخفى انتزاع التصوير من البيئة في الألفاظ والمعاني .

---

(١) التدلي : ذكر المتعددات من جنس أو نوع أو صنف واحد إذا كان بينهما تفاضل في الدرجات أو المراتب فذكر الأدنى إلى الأعلى ترقياً ، والأعلى إلى الأدنى تدلياً. مالم يدع داع بلاغي آخر يحرص المتكلم أن يشير إليه بمخالفة هذا النظام . (ينظر البلاغة العربية : أسسها ، وعلومها، وفنونها، تأليف / عبد الرحمن حبنكة لميداني ، ٢| ٤٥٨، دار القلم ، دمشق-سوريا، ط٤-٢٠١٣م.

(٢) أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، محمود موسى حمدان، ص١٩٩، ط٢، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م ، مكتبة وهبة ، القاهرة . والآية الكريمة من سورة الحج، آية: ٣١.

وربما اختار لفظ (راح) دون غيره ؛ لتضمنه معاني الراحة والاطمئنان والنشاط ، وكلها للترغيب في التبكير للذهاب إلى المسجد للذكر والعبادة والتهيؤ قبل الخطبة ، والاستعداد للصلاة ، والتوجه إلى الله –سبحانه– بالدعاء ، وقد أكد القرآن الكريم على هذه المعاني في قوله : " ..فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ "(١)

والتعبير بالفعل الماضي في قوله : (اغتسل – راح – قرب)؛ يفيد تحقق الوقوع الذي يستحث المتلقي على الاستجابة، ويبشره بحصوله على الأجر، فضلاً عن استمالة القلوب والعقول من خلال حسن ظنه في السامع الذي يمتثل للأوامر بمجرد سماعها، وكأن الأمر قد تجاوز معنى الطلب إلى معنى التحقق والانتهاء من الإنجاز.

وقد عزز أسلوب التدلي في الحديث روح التنافس في الخير، وكان الطريق الأقرب إلى الترغيب في الأمر، فوضع للمخاطب العمل والجزاء في ترتيب دقيق من الأعلى إلى الأدنى، وجعل له حرية الاختيار دون أمر أو نهي .

ومن أحاديث الترغيب –أيضاً – ما روي عن جابر بن عبد الله– رضي الله عنهما – أن النبي –صلى الله عليه وسلم –قال: " من بنى مسجداً لله كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتا في الجنة" . (٢)

والمفحص هو مكان تجهزه القطاة في الأرض؛ لوضع بيضها. وقد عززت لغة الحديث مراده وهو الترغيب في بناء المساجد، واستهل (بمن) بما فيها من الترغيب واستمالة القلوب بلطف دون بقية أخواتها . ثم قيد بناء المسجد بقوله: (لله) كأن الإخلاص شرط للقبول في كل أعمال البر التي ربما يصعب حجبها عن الناس ، ويكون صاحبها عرضة للرياء ؛ فتتطلب مزيداً من الإخلاص، وتتطلب تجديداً

(١) سورة الجمعة، آية/٩.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات ، باب من بني لله مسجداً، حديث/ ٧٣٨، ج١–ص٢٤٤، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء الكتب العربية ،مصر.

مستمراً للنية.

والصورة في قوله :(كمفحص قطاة) ربما يرجع اختيار القطاة إلى كونها أصغر الطيور التي تجهز مكاناً لبيضها على الأرض ؛ فهو مشهد محسوس من قبل السامع ، قال الشاعر:

وقد اتخذت رجلي إلى جنب غرزها نسيفاً كأفحوص القطاة المطرق[١]

والشاعر يصف ناقته، ويصف سرعتها، من خلال استثارتها بضرب قدميه في جوانبها؛ ليستحثها على السير، وهو إذ يضربها بقدميه في موضع الغرز منها أصبح في الموضع نسيفاً، أي : أثراً كأفحوص القطاة التي أوشكت على وضع بيضها، ولا أرى من وجه للشبه في الصورة، سوى الصفة التي تجمع بين الأثر البادي في كلٍ، أثر موضع القدم في الناقة، وقد خف وبره، ورق جلده، وتغير لونه، وكذلك أثر الأرض بعد مفحص القطاة ، وقد أزيل عنه بعض التراب؛ فاختلف لونه وتميز عن كل ما يحيط به، ولعل في تشبيه الشاعر ما يدل على صغر حجم هذا الأثر.

واختيار(مفحص القطاة) يعد من المبالغة في التشبيه؛ لأنه لا يتسع إلا لموضع قدم شخص؛ فكيف به يكفي لأداء صلاة فرد فضلاً عن الجماعة ؟!

" قوله : (من بنى مسجداً) التنكير فيه للشيوع ؛ فيدخل فيه الكبير والصغير، ...ورواه ابن خزيمة من حديث جابر بلفظ :(كمفحص قطاة أو أصغر) ، وحمل أكثر العلماء ذلك على المبالغة؛ لأن المكان الذي تفحص القطاة عنه لتضع فيه بيضها، وترقد عليه، لا يكفي مقداره للصلاة فيه . وقيل : بل هو على ظاهره ، والمعنى : أن يزيد في مسجد قدراً يحتاج إليه ، تكون تلك الزيادة هذا القدر، أو يشترك جماعة في بناء مسجد، فتقع حصة كل واحد منهم ذلك القدر .." [٢]

(١) ديوان المثقب العبدي ، شرح وتحقيق حسن كامل الصيرفي ، ص٢٨٠، ط١، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة – مصر .

(٢) فتح الباري لابن حجر، ج١،ص٥٤٥، صححه وأخرجه ورقم أبوابه : محمد فؤاد عبدالباقي ، محب الدين الخطيب، ط١|١٣٧٩هـ، دار المعرفة –بيروت–لبنان

وتتعزز المبالغة في الحديث الشريف بقوله –ﷺ–: (أو أصغر)، والمبالغة في مقام الترغيب تستحسن ؛ حتى يستميل بيان النبوة كل العقول نحو الإسهام في هذا العمل بأي نصيب ، ولو بأقل القليل ، حتى يناله ذلك الجزاء العظيم من رب كريم يضاعف الحسنة إلى سبعمائة ضعف .

وفي التعبير بالفعل (بنى)، وإسناده إلى لفظ الجلالة، إيحاء بأن الجزاء من جنس العمل ،– وفرق بين بناء العبد وبناء ربه – وليعظم من سيقدم على هذا العمل، وليجذب انتباه السامع ويحفزه من خلال التكرار للفعل ، وهو كثير في بيان النبوة ، ومنه في الحديث القدسي : " من تقرب إليّ شبراً ، تقربت إليه ذراعاً...الحديث".(١)

وربما أتى التناسب الصوتي بين الجملتين – حيث تكونت كل جملة من ست كلمات – يعزز شعور المكافأة . " والمثلية هنا حاصلة بحسب الكيفية ، فكم من بيت خير من عشرة بل مائة ، أو أن المقصود من المثلية أن جزاء هذه الحسنة من جنس البناء ، لا من غيره مع قطع النظر عن غير ذلك ، مع أن التفاوت حاصل قطعاً بالنسبة إلى ضيق الدنيا وسعة الجنة، إذ إن موضع شبر فيها خير من الدنيا وما فيها، كما ثبت ، وقد روي أحمد من حديث واثلة بلفظ (بنى الله له في الجنة أفضل منه) ، والطبراني من حديث أبي أمامة بلفظ: (أوسع منه)، وهذا يشعر بأن المثلية لم يقصد بها المساواة من كل وجه . " (٢)

ومما ورد في مقام الترهيب أيضا ما روي عن عمرو بن العاص–رضي الله عنه– قال: " كنا مع رسول الله– صلى الله عليه وسلم– بمر الزهران، فإذا بغربان كثيرة فيها غراب أعصم ، أحمر المنقار والرجلين، فقال النبي :– صلى الله عليه وسلم – لا يدخل الجنة من النساء إلا كقدر هذا الغراب في هذه الغربان" . (٣)

---

(١) صحيح مسلم، كتاب التوبة ، باب في الحض على التوبة والفرح بها، رقم: (٢٦٧٥) ، ج٨|ص٩١، ت| أحمد بن رفعت وآخرين،ط١–١٣٣٤، دار الطبعة العامرة بتركيا.

(٢) فتح الباري ، ج١|ص٥٤٦.

(٣) السنن الكبرى ، النسائي، كتاب عشرة النساء، باب ذكر الاختلاف، حديث(٩٢٢٣) ، ج٨|ص٣٠٢، تحقيق حسن عبدالمنعم شلبي، ط١|١٤٢١–٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة– بيروت– لبنان

لما تشابهت الغربان في لونها وشكلها وطباعها كان من العسير التفريق فيما بينها، [١] وقلّ أن يتميز أحد الغربان بعلامة كالغراب الأعصم الذي ورد ذكره في الحديث الذي اختلف في معناه، فقيل : هو الذي إحدى قدميه بيضاء،- فضلا عن ما ذكر في الحديث السابق - . [٢]

لما عز تميز أحد الغربان؛ ناسب هذا توظيف الصورة في دخول النساء الجنة، في هذا الأسلوب التحذيري الذي استند فيه النبي-ﷺ- إلى عدة وسائل لغوية وبلاغية ؛ كان من أهمها : الإيجاز الذي يحيل السامع إلى ذلك الرصيد المعرفي لأحاديث النبي -ﷺ- عن المرأة، التي منها أحاديث الترهيب التي فصل فيها القول حول أقبح الأفعال التي ترتكبها النساء، وتكون سبباً في دخول أكثرهنّ النار، فقد عزف النبي -ﷺ- عن ذكر التفصيل لأسباب دخول أكثر النساء النار مبالغة في الترهيب والتحذير ، وحرصاً منه على انتباه النساء إلى ذلك المصير، من خلال هذه الصيغة الإخبارية التي لا تفتح باباً للشك، ولا تحمل بين طياتها طلباً، وكأنها صارت حقيقة واقعة مؤكدة بالنفي والاستفهام، وليس على المرأة بعد ذلك إلا التفكر والتدبر والخوف ومراقبه النفس ؛ للوصول بها إلى النجاة أو العكس، وربما لجأ النبي-ﷺ- إلى الترهيب بهذه الصورة؛ لخبرته بطبائع النساء التي هي أقرب إلى التردد والميل عن الحق، وقوة الانفعال، وعدم ضبط النفس، وغيرها من الأمور التي تحتاج إلى شدة القرب من الله-عز وجل- والاستعانة به، ومجاهدة النفس والشيطان،

(١) روي عن عكرمة عن النبي -صلى الله عليه وسلم - عن المرأة التي أتت تشتكي زوجها فأبصر النبي ابنين لها قال: " بنوك هؤلاء ؟، قالت: نعم .قال: - صلى الله عليه وسلم - هذا الذي تزعمين ما تزعمين؟! فو الله لهم أشبه به من الغراب بالغراب. " كتاب البخاري، كتاب اللباس-باب الثياب الأخضر، حديث(٥٤٨٧) ، والمقصود تشابه الغربان تشابهاً كبيراً ضرب النبي -صلى الله عليه وسلم- به المثل في تشبيه الأبناء بأبيهم- في موقف بعينه- .

(٢) روي عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم في مائة غراب، وفي رواية: قيل يا رسول الله وما الغراب الأعصم؟ قال: الذي إحدى رجليه بيضاء ." رواية الطبراني في المعجم الكبير / ٧٨١٧.

وقليل منهن من تفعل، لذا؛ يتطلب تذكيرهن هذه المبالغة في الترهيب بذكر العقاب على هذا الوجه الصريح المؤكد، بعد أن يسبقه جملة من الأحاديث التي توضح وتعلم وتأمر وتنهي، وقد توافق هدي النبي –ﷺ– مع ما جاء في كتاب الله –عز وجل– في معاملة المرأة الناشز ، قال تعالى: (فَعِظُوهُنَّ واهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ..)[1] مستخدماً أسلوب الترقي الذي يتناسب مع طبائع النساء المختلفة. وربما كان السبب في المبالغة في الترهيب –أيضا – ؛ ما يترتب على هذا الفعل من مفاسد تضر بالدين والدنيا، والمتتبع لأسلوب البيان النبوي في الترهيب؛ يجد المبالغة في مثل هذه الأمور حاضرة ربما من باب درء المفاسد ، ولا يخفى ما في اختيار صورة الغراب بكل ما تحمله لفظة الغراب من دلالات سلبية مكتسبة من الموروث الفكري والمجتمعي، مثل: التطير، والقبح ،وشدة السواد ، وكلها معان تناسب أسلوب الترهيب، وقد تآزرت مع وجه الشبه المقصود، وهو الندرة ؛ حتى خرجت الصورة بهذا الجمال.

(١) سورة النساء/ آية: ٣٤

المطلب الرابع: مشهد الطير بين الشعر العربي والبيان النبوي

اختلف مشهد الطير في الشعر الجاهلي عنه في البيان النبوي؛ وذلك لاختلاف نسق الكلام طبقاً لاختلاف أهدافه ، فضلاً عن بيان النبي الكريم الذي أوتي جوامع الكلم –ﷺ– الذي يعد ذكره في معرض الحديث عن الشعر؛ تجاوزاً تفرضه طبيعة البحث .

وإذا كان مشهد الطير في البيان النبوي قد جاء على النحو الذي تبين ؛ فإن الأمر يختلف عنه في الشعر الجاهلي ، هذه الوثيقة التي سجلت تاريخ العرب، وعاداتهم ، وعواطفهم.

اتخذ شعراء الجاهلية من الطبيعة – بكل معطياتها – ومنها الحيوان عامة ، والطير خاصة – وسيلة للتعبير عن أغلب أفكارهم ومعانيهم وعواطفهم ؛ فتوارت جلها خلف مشاهد الوصف الكثيرة ، والمكرورة، والمتنوعة، في الشعر الجاهلي في لغة تفيض بياناً ، وتومض رمزاً. واستطاع الشاعر الجاهلي – بصفاء ذهنه ، ودقة تأمله – ؛ تصوير مشاهد الطبيعة من حوله ، بكل معطياتها ، ومنها الحيوان ؛ فالجاهليون كانوا أكثر الأمم اتصالاً بالحيوان وبالطير، وأكثر الأمم مخالطة لهما، يتقاسمان المكان بكل ما فيه من دفء، وخير، وقسوة ، وشر، " إن الصورة المستمدة من الحيوان وأمثالها ؛ أمدت الجاهليين بكثير من القيم والأعراف ؛ فأبدعوا في التعبير عنها؛ لأن عالم الحيوان عالم رحب من الأشكال والتصرفات، وقد فرضت الحياة نوعاً من المشاركة بينه وبين عالم الإنسان الذي استمد منه غير مادة أو قيمة فكرية ..." [(١)]

الشعر هو تلك اللغة المكثفة التي تحمل العواطف والأفكار، بل تحمل نفس قائله بكل ما تنطوي عليه، وقوام اللغة هذه : العاطفة والخيال ؛ لذا جاء توظيف

(١) صورة أمومة الحيوان في الشعر الجاهلي ، رسالة ماجستير مخطوطة للباحث/ جوهر محمد الشهري، ص ٣٦، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م .

الشعراء لصورة الطير يختلف – في الشكل والمضمون والكثرة – عن توظيفه في البيان النبوي ، وكانت لصورة الطير في الشعر الجاهلي حضور لافت ، وظاهرة تستحق الوقوف عليها . " قد شغلت منزلة الطير مكاناً مهماً في الأدب العربي، وارتبطت بمعتقدات ظهر أثرها جلياً في أشعارهم، وأمثالهم ، وارتبطت بها جوانب غالبة في حياتهم؛ وحفل نتاجهم الأدبي بمادة لغوية لا بأس بها عن الطير، وأسمائه، وكُناه ، وكل ما يتصل بأجزائه، وأصواته، وأماكنه، وجماعاته، وحركاته، وطباعه، وضربوا الأمثال الكثيرة بها وبصفاتها، وبألوانها، وتغنى الشعراء به ، وسطروا في ذلك شعراً جميلاً، لا يزال يتداول إلى يومنا هذا . "[١]

ومن المعاني التي استترت خلف صورة الطير؛ الأمومة في صورة النعامة، ولوحة الظليم التي وردت في كثير من أشعار الجاهلين، ومعاني الرقة واللطف والحزن العميق في صور الحمامة والقطاة، ومعاني حدة البصر والشجاعة والقوة والسرعة في صورة كل من : الصقر ، والبازي، والعقاب، ومعاني التطير والتشاؤم والفراق في استدعاء صورة الغراب . كما تعلق ذكر بعض أنواع الطير ببعض المعتقدات الأسطورية والخرافات المتوارثة في المجتمع العربي .

وتخطى مشهد الطير في الشعر العربي التعبير عن بعض المعاني والانفعالات النفسية؛ إلى الأنس بالطير، ومؤانسته، وأنسنته من خلال مخاطبته ، والبوح له ، " والمتأمل لما ذكر لدى بعض الشعراء ؛ سيتضح أنهم أغرقوا في مناجاة الطير ؛ فأظهروه بخيالهم الواسع ، وكأنه قادر على التحدث، والاستجابة، والرد، وبعضهم استأنس به ، واتخذه صديقاً يبث إليه همومه ، وأسراره، ويناجونه بخطاب يختلف من طير إلى آخر ". [٢]

---

(١) مخاطبة الطير في الشعر العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري : رسالة ماجستير مخطوطة للباحث / حمد بن علي الحسيني الهاشمي ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، ص ٢٢، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م .

(٢) مخاطبة الطير في الشعر العربي ، ص ١٢.

وإذا كان من تشابه في توظيف صورة الطير بين البيان النبوي والشعر والعربي؛ فلا نكاد نجد غير صورة الأمومة ، في حديث النبي عن المقارنة بين رحمة الله ورحمة الأم من الطيور بفراخها أو بيضها ، وصورة الغراب التي توظف في مقام الإنذار أو الترهيب والسخرية .

ولا يخفي ما يتغياه أسلوب البيان النبوي من البيان والإبانة عن الجوانب التشريعية التي لا تتطلب أن يرتاد النبي الكريم –ﷺ– آفاق الخيال الرحبة، وسبل المبالغة، ودروب الحرية الفكرية التي تتيه معها– في بعض المواطن – المعاني والمقاصد كما يفعل الشعراء ، وكما يتطلب الإبداع الشعري ؛ فخيال الشعراء استطاع أن يلتقط صورة الطير فيوظفها في المعنى ، وفي ضده بما يضفيه عليها، ويضيفه إليها من روحه ونفسه ، " ولقد عكس الطير – في تجربة الشاعر الجاهلي – الألوان التي تتلون بها نفسية الشاعر، ورؤيته الذاتية؛ إذ اتخذ منه وسيلة للتعبير عن خلجاته ، فهو يسقط مشاعره الباطنة على الطيور من حوله؛ فيراها فرحة منطلقة مغردة، أو حزينة باكية اعتراها الضعف ، وإذا أراد التعبير عن حالته الوجدانية؛ فإنه يبحث عن مصدر للأمل والسعادة . " (١)

ولعل ذكر المثال يوضح ما أردت توضيحه ، يقول المعري :

أبكت تلكم الحمامة أم عن ت على فرع غصنها المياد (٢)

وتجاوز الأمر ذلك في الشعر المعاصر، وقاد الخيال إبداع الشعراء ؛ فاستحضروا صورة الطير على غير ما عرفت به من سمات ، بل ووظفوها في معان متضادة مع تلك التي عرفت بها . " ويبتعد الشاعر عن الأوصاف الحسية للعصفور ؛ فيوظفه توظيفاً عكسياً ، يخالف الصفات الجسدية ، ويتحول من نمط

(١) صورة أمومة الطير في الشعر الجاهلي ، ص ١٠ .

(٢) سقط الزند، ص٧، دار بيروت، دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ –١٩٥٧م . لمزيد من النماذج من الشعر الجاهلي ينظر :(توظيف الطير في الشعر الجاهلي : عنترة بن شداد نموذجاً) للباحث /مامادو دامبلي ، جامعة الساحل – مالي ، نشر بمجلة حوليات التراث ٢٠١٩م.

الضعف إلى القوة :

يا بلادي

العصافير التي غنت طموحاً وجسارة

ربما مالت بها الريح إلى أرض الإثارة

ربما غنت بما لا يشتهون

غير أن اللحن مكظوظ بألوان الطهارة .

فالعصافير التي كانت تمثل الضعف، وهي الطيور التي تصاد بأيسر حيلة، ويعرف عنها الرقة والغناء الشجي، ودائماً ما تعبر عن الحب أو الكلمة أو الانكسار أو الخضوع؛ أصبحت في النص هنا تمثل القوة الثائرة التي تحول غناؤها إلى نشيد ثوري نبراته تدل على الجسارة والقوة ، هذا النشيد أشغل الغضب في نفوس رافضيه ؛ فقاوموه .." [1]

فخيال الشعراء قد استطاع أن يقلب الصورة على كل وجوهها، ويوظف الصورة الواحدة في معنيين متناقضين ، بل واستطاع أن يوظف الطير بنقيض ما هو مختزن في الذاكرة المجتمعية من صفاته ،وقد ينعكس ذلك على المتلقي ؛ فيقرأ النص أكثر من قراءة ، وينفتح النص على أكثر من معنى ، لا ترجح كفة إحداها على أخرى ، حيث لا ضابط يضع النص في حيز واحد ، وهذا لا يتأتى مع بيان النبوة الذي يحمل قيما تشريعية تتعلق بالحلال والحرام ، وتتكئ في صياغتها على قوانين اللغة وأحوال السياق وإن تعددت القراءات التي تستخرج مقاصدها .

(١) الطير في الشعر المصري المعاصر : قراءة في العلاقة بين الفطرة والتوظيف الفني ، عماد حسيب محمد ، ص ١٣١، والأبيات للشاعر الأستاذ الدكتور / محمد أحمد العزب ، الشاعر والناقد والأستاذ بجامعة الازهر– رحمه الله–.

المبحـــث الثانـــــي :

(بين اللغة والتصوير)

المطلب الأول: الألفاظ.

المطلب الثاني: الأساليب.

المطلب الثالث: التصوير.

المطلب الأول: الألفاظ

تعد الأحاديث النبوية التي تناولت مشهد الطير في البيان النبوي؛ صورة صادقة من صور بلاغة النبي- صلى الله عليه وسلم- تتجلى فيها أغلب ما تميزت به هذه البلاغة من سمات؛ كقوة الصياغة، ودقة التعبير، وروعة الألفاظ، وجمال التصوير، وتميز الجرس ، إلى غير ذلك على نحو يشهد لصاحبها -صلى الله عليه وسلم- بامتلاك ناصية البيان .

وقد تحدث عن البيان النبوي وسماته كثير من الكتاب قديماً وحديثاً، و سأحاول – قدر استطاعتي -أن أسهم ببعض ما قد يقال عن جماليات التعبير في البيان النبوي. ولا مشاحة في أن أول ما يجب الالتفات إليه ؛ هو الحديث عن الصدق فهو تميمة البيان والبلاغة، والنجاح في الوصول إلى قلب وعقل المتلقي ، وتلك غاية البيان الأولى ، ومن العبث محاولة الحديث عن صدق النبي -ﷺ- ووضوح الرؤية في نفسه، ذلك الذي كان يتحدث إلى قوم هم أرباب الفصاحة والبيان، وتحمّل ما تحمل من الأذى النفسي والمعنوي في سبيل هذه الدعوة .

وإذا ما نظرنا إلى جماليات التعبير في مشهد الطير في البيان النبوي؛ نجد أنها تتمحور حول كل من : الألفاظ ، والأساليب ، والصورة، وسنفرد لكل منها حديثاً. وسنعرض لكل منها، وأبدأ بالألفاظ وسماتها على النحو التالي:

السهولة والألفة :

سهولة الألفاظ ووضوحها، أول ما يلاحظ في لغة الحديث النبوي عامة، ومشهد الطير كذلك، فهي واضحة ، وتكشف عن المعنى المراد؛ و كان- صلى الله عليه وسلم – يتجنب الحوشية والغموض والغرابة في الألفاظ ؛ حرصا منه على الإبانة ، والإفادة الكاملة للسامعين، والمتتبع لصفحات هذا البحث سيدرك أن البيان النبوي لم يُحِلني إلى بطون المعاجم للبحث عن شاردة أو آبدة إلا فيما ندر. " ولعل أبرز الخطوط التي تكوّن هذا البيان، أنه بيان عربي خالص، لم يخرج فيه صاحبه عن

حدود البيان العربي في مختلف الاتجاهات، فهو عربي في لفظه اعتمد صاحبه في مادته الأولى على قاموسه الخاص من لغة قومه ، التي كان له فيها الباع الواسع، حيث اشتمل قاموسه –ﷺ– على المفردات العربية في بيئته الصغيرة الخاصة (قريش)، والمفردات العربية في مختلف اللهجات العربية الأخرى ، مما مكنه أن يخاطب كل عربي أياً كان موطنه باللهجة التي يعرفها ..." (١)

الدقة والإيحاء :

ألفاظ النبي–ﷺ– مع سهولتها ووضوحها موحية دقيقة ، تعبر عن المعنى بصدق ودقة بحيث لا يغني عنها سواها ،" ومعنى إيحاء الكلمة إثارتها في النفس معاني كثيرة أحاطت بها مع مرور الزمن، حتى صار النطق بالكلمة مثيراً لهذه المعاني في نفس سامعها ، وإن لم تذكر قواميس اللغة هذه المعاني، كما ترى ذلك مثلاً في كلمات : الأم ، والوطن، والمدرسة ،..." (٢)

والمتتبع لمشهد الطير سيلحظ أن انتقاء اللفظة كان نابعاً من الإبانة الدقيقة على الدلالة المقصودة أكثر من غيرها من المترادفات.

" وأول صفات التعبير لديه –ﷺ– سهولة المأخذ، وقرب المتناول ، فإذا أتى السامع حديثه ظن لسلامته، ويسره ،أنه مما تسهل محاكاته ، فإذا أراد أن يأتي بمثله طاش وحار" . (٣)

وقد مر تناول الألفاظ والحديث عن دقتها وإيحائها، ومن ذلك – على سبيل المثال – (فما فوقها) في حديث : (من قتل عصفوراً..) ، واختيار (سأله الله) والعدول عن (عاقبه الله أو حاسبه الله) في الحديث نفسه . ومنها : لفظة (فيه الروح) من حديث(لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً) ، ولم يعدل عنه إلى حيوان أو

(١) تأملات في البيان النبوي، د إبراهيم عوضين، ص١٤١، ١٤٢، ط٢، ١٩٨١م ، مطبعة السعادة، مصر.
(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب ،د/ أحمد بدوي ، ص٤٥٥، ط٦، ٢٠٠٤م ، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر .
(٣) البلاغة النبوية ، د إمحمد رجب البيومي ، ص٢٤٨، ط١، ١٤٠٧هـ – ١٩٧٨م ، دار الوفاء ، المنصورة – مصر

طائر أو مخلوق ، وذلك للمبالغة في النهي والامتناع عن ارتكاب الفعل مع كل من دبت فيه الروح صغيراً كان أو كبيراً ، كما أن كلمة (الروح) فيها ما فيها من إثارة مشاعر الشفقة والرحمة التي تفضي إلى الامتناع والتحذير ؛ فالروح سر الحياة لدى الإنسان أيضاً. ومنها: لفظة (كتب) في حديث (إن الله كتب الإحسان على كل شيء..) . ومنها : (راح) في حديث التبكير يوم الجمعة ، ومنها : (خماصا وبطانا) في حديث : (لو توكلتم على الله ...) ، ومنها : ألفاظ (ابن آدم – العصفور– سبع مرات) إلى غير ذلك مما مر ذكره .

الجرس و الإيقاع:

المتأمل في البيان النبوي سيلحظ مناسبة إيقاع اللفظة للمعنى المراد بالسياق ، وقد تحدث عن مناسبة أصوات الكلمة وحركاتها للمعنى عدد من علماء اللغة قديماً وحديثاً. " وإن لجرس اللفظة ، ووقع تأليف أصوات حروفها وحركاتها على الأذن دوراً مهماً في إثارة الانفعال المناسب . فالإيقاع الداخلي للألفاظ ، والجو الموسيقي الذي يحدثه عند النطق بها، يعد من أهم المنبهات المثيرة للانفعالات الخاصة المناسبة، كما أن له إيحاء نفسياً خاصاً لدى مخيلة المتلقي والمتكلم على السواء".[١]

من هذه الألفاظ في مشهد الطير في بيان النبوة لفظة (فجع) في حديث

(ويحكم! أيكم فجع هذه ؟ ..) ، وقد أتت الكلمة شديدة الجرس مع شدة الدلالة ، فأتت ألفاظها مجهورة شديدة متباعدة مخارج الحروف مما جعلها مرهقة في النطق ، كإرهاق المدلول الذي يعني: المشقة، والحزن، والألم الشديد، والهلع الذي يصيب الأم عند انتزاع أفراخها . وفي الحديث نفسه قوله – صلى الله عليه وسلم – (اردده) ، بتكرار حرف الدال الشديد المجهور الذي يناسب شدة الموقف ، وغضب النبي ورحمته بهذه الأم .

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، د/ مجيد عبدالحميد ناجي ، ط١، ص ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤ م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان

ومن ذلك لفظة (قرّ) في حديث عائشة : (يقرها في أذن وليه قر الدجاجة ..) ، فقد أفاضت هذه المفردة بحروفها وحركاتها على المعنى المقصود فيضاً من الدلالات، فالقرّ هو ترديد الكلام ، وهذا يناسب سياق الحديث ، فكأن الجني يردد ما استرق من السمع في أذن الساحر ، والساحر لضعفه وجهله لا يحفظ من مرة واحدة، وإنما يحتاج إلى كثرة الترديد الممل الرتيب، الذي يشبه قرّ الدجاجة، فجاءت أصوات الكلمة وحركاتها تناسب هذه المعاني ، فالكلمات التي استرقها الجني بسيطة قليلة وكذا لفظة (قرّ)، والقاف والراء أصوات شديدة مجهورة تناسب الصوت الرتيب المزعج ، وحرف الراء المكرر المشدد يوحي بتردد الصوت وشدته وتكراره على مسامع الكاهن الذي – من فرط كذبه ودجله– لم يعد يفرق بين الصدق والكذب ، فكان لزاماً على الجن أن يكرر عليه ما يقول من صدق ، وقرب مخرج الحرفين : القاف والراء ، يعزز قرب الجني من الساحر؛ حيث يقر في أذنه ، والفعل قرّ قراً: صيغة توحي بالتكرار والحركة والاضطراب ، وتدل على معناها وهو تكرار الصوت المتماثل ، حيث حرف الراء المشدد.

ومن مناسبة الإيقاع للمعنى أصوات الصفير المتكررة التي ظهرت في حديث (إذا سمعتم صياح الديكة ...) ، والصفير وضوح في الصوت وعدم القدرة على كتمانه ، أو خفض الصوت به نتيجة اندفاع الهواء من السعة إلى الضيق أثناء النطق ، وهي أصوات ناسبت الصياح والدعاء والتنبه، وهذا مراد الحديث .

ومن مناسبة الإيقاع للمعنى حركات الألفاظ كذلك ، تأمل قوله :– صلى الله عليه وسلم – : (نقرة الغراب) حيث لفظة نقرة التي تدل على الخفة والسرعة ، بينما لفظة (قرّب) في حديث : (من اغتسل يوم الجمعة ...) ، المشددة الراء؛ ليدل على قوة الفعل، وعظيم أجره ، –وأيضا – لفظة (يتقلب) في حديث: (..يتقلب في اليوم سبع مرات) لفظ كثير الحركات متعاقبها ، مشدد اللام التي يعقبها حرف الباء الشديد الذي يحدث انفجار في الهواء عند النطق به؛ مما يناسب حركة القلب وعدم استقراره، وتنازع الخير والشر فيه .

الصيغة الصرفية للكلمة:

من توفيق النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – ورود ألفاظه بصيغة صرفية ووزن يناسب المعنى ، ومن ذلك التعبير باسم الفاعل الذي جمع في صيغة (فواسق) في حديث :(خمس فواسق يقتلن ...) ، فاسم الفاعل أكثر قوة في التعبير عن المعنى المراد من صيغة الفعل – على سبيل المثال – أو الاسم ؛ حيث يفيد الدوام والثبوت في اتصاف المسمى بالصفة ، بينما يتقيد الفعل بالزمن ، ولا يدل الاسم الذي وضع للحيوان على الوصف .

ومن الصيغ الصرفية المناسبة للمعنى – كذلك –: اسم المرة واسم الهيئة ، في (نقرة) الغراب ، و(قتلة)، و(ذبحة) في حديث (إن الله كتب الإحسان ...) ؛ حيث تفيد السرعة والخفة والعجلة التي تناسب المعنى والحدث ، سواء سرعة الصلاة أو سرعة إنجاز القتل أو الذبح بآلة حادة رحمة بالحيوان .

وكذا بناء الفعل للمفعول ، نحو (يُقتَلن) في حديث خمس فواسق...، حيث كان الاهتمام بالمفعول به دون الفاعل ؛ للتعريف به ، فهو محور الحديث ، والتبصير به هو الهدف، لذا؛ سارع إلى ذكره بل قدمه على الفعل المبني للمجهول .

ومن الصيغ: صيغة التصغير ، مثل (نُغير) وقد لجأ إلى التصغير ليناسب التودد والرفق والتلطف مع الطفل ، وقد مرّ شرح الحديث .

ومن بلاغة البيان النبوي: اختيار زمن الفعل حسب ما تقتضيه طبيعة الموقف ، وقد تناولت ذلك في المبحث الأول ، ومن ذلك حديث : (إن الله كتب الإحسان ...) ، جاءت الأفعال بصيغة الأمر في : (أحسنوا)، وبصيغة المضارع المقترن بالأمر في: (فليحد) ، و:(فلْيُرِح) ، فالأمر المباشر للمخاطب ويشمل كل المسلمين، والمضارع المقترن بالأمر للمخاطب والغائب أيضاً ، كأنها شرح لفعل الأمر يوضح كيفية الإحسان ، فكأن الصيغة الثانية تأكيد وتعميم وتوضيح للأولى، كما أن التنوع في الزمن يثير انتباه المتلقي ويجذبه.

المطلب الثاني :الأساليب

توظيف النبي الكريم –ﷺ– لأساليب اللغة يعد أنموذجاً فريداً لكل من أراد أن ينهل من البلاغة العربية، والمتأمل لأساليب البيان النبوي؛ يلحظ كيف يوظف النبي –ﷺ– الأسلوب الواحد لعدد من المعاني التي تستدعيها المواقف، وكيف يستعين بكل عناصر اللغة، حتى يتناغم الأسلوب مع للسياق، ويتوافق مع غاية الكلام ومقصده مع وضوحه وجماله .

" من الخصائص العامة للأسلوب النبوي دقة اختيار الألفاظ والأساليب ، وقوة ربطها بالمواقف التي تعبر عنها، ومراعاة ملاءمتها لأحوال المخاطبين، وقدراتهم الفكرية المتنوعة ومشاعرهم وواقع حياتهم ، ومنها الغاية بوسائل البيان المعنى سواء منها ما يتصل بالعناصر اللغوية الصوتية والدلالية، أو عناصر الشرح والتفصيل" . (١)

وقد تميزت الأساليب النبوية بعدة سمات ، كان من أهمها الآتي :

مناسبة الأسلوب للموقف النفسي.

من أول معاني البلاغة ومراميها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، والمتتبع لأساليب البيان النبوي سيلحظ إلى أي مدى قد وفق النبي الكريم –ﷺ–في اختيار أساليبه ، بحيث لا يغني عن الأسلوب المستخدم سواه ، بل والأكثر من ذلك ، كيف يستطيع البيان النبوي توظيف الأسلوب الواحد في المواقف المختلفة، وأحياناً المتنافرة. !

أسلوب الاستفهام – على سبيل المثال – الذي تنوع في مشهد الطير بين أن يطرح النبي –صلى الله عليه وسلم– السؤال على الصحابة– رضوان الله عليهم–، أو يحملهم على السؤال باستثارة عقولهم وقلوبهم؛ فيبادرون به. ومن ذلك حديث

(١) من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف د/ فتحية محمود العقدة، ط١– ١٤١٤– ١٩٩٣م، مطبعة الأمانة– القاهرة،ص٤٢.

(من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها سأله الله – عز وجل – يوم القيامة، قيل يا رسول الله : فما حقها..) ، فقد ألقى النبي على أسلوبه هذا الغموض الشفيف من خلال قوله: (بغير حقها) ؛ حتى يبادر المستمع بالسؤال، فهو نوع من الاستدراج بقصد إقامة الحجة على السائل حتى إذا ما تلقى الجواب؛ يكون في قلبه أوقع، وفي نفسه آكد، ومنه قوله: (ويحكم ! أيكم فجع هذه ؟) ، احتشدت في هذا الأسلوب كل الوسائل اللغوية التي تحمل المخاطب على الاعتراف بالذنب، واستشعار جرم ما اقترف ، منها : لفظة: (ويحكم) التي تحمل معاني الزجر والتوبيخ والعتاب القاسي ، ومنها اختيار لفظة :(أيكم) ، فلم يقل مثلاً : من منكم ..؟ مبالغة في نسبة الفعل إلى فاعله ، ومواجهته به ، واستشعار المذنب بذنبه ، ومنها التعبير بلفظة: (فجع) التي تصور قسوة الذنب المقترف، وكأن الهدف من السؤال حمل المذنب على مراجعة نفسه والرجوع عن الخطأ، وليس الهدف معرفة المذنب ، ولعل هذا ملمح من ملامح أدب النبوة ، نبذ الفعل دون الفاعل ، ففي المواقف التي تتعلق بحرمات الله– تعالى– ، تلك التي ينتظر فيها الزجر والتوبيخ ؛ نجد النبي –صلى الله عليه وسلم – يجرم الفعل دون الفاعل ، فيحشد كل وسائل اللغة التي تنفر من الفعل ، مع التلطف بالفاعل ، وعتابه من وراء حجاب السياق ، صدق الله – عز وجل – إذ يقول : " عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ " (١)

ومن سياقات استخدام أسلوب الاستفهام التي كثرت في بيان النبوة : اقتران الاستفهام بأدوات العرض أو التحضيض ، نحو قوله –ﷺ–: " ألا أدلكم ..؟ ألا أخبركم..؟ وهو زيادة في التشويق، ومبالغة في الاهتمام وإثارة الذهن لاستقبال كلام النبي .

ومن الأساليب كذلك : أسلوب الشرط، وقد كثر بصورة لافتة في البيان النبوي، – وقد سبق الحديث عن هذا الأسلوب في مستهل هذا البحث– وبقي أن

(١) سورة التوبة، بعض الآية /١٢٨.

أشير إلى بعض الملاحظات التي تتعلق بهذا الأسلوب، من خلال تأمل ذكره في مشهد الطير، منها تنوع استخدام أدوات الشرط تبعاً للموقف، فقد استخدم النبي- صلى الله عليه وسلم- على سبيل المثال -(إذا) في قوله: (إذا قتلتم فاحسنوا القتلة..) ، واستخدم (لو) في قوله : (لو توكلتم على الله حق توكله..) ؛ فإذا الظرفية قد استخدمت في مقام التعليم والتهذيب لأمر نبوي يسهل الامتثال له؛ بينما استخدمت (لو) حرف امتناع في مقام التعليم والتهذيب -أيضا- لأمر يصعب الامتثال له، لأنه متعلق بالقلب ودرجة إيمانه لا بالجوارح، وقليل ما هم من يجاهدون أنفسهم، ويتجاهلون هواها، فكان استخدام(لو) هنا موفقاً في الوصول بالمتلقي إلى التيقظ والانتباه ومجاهدة النفس والامتثال للأمر ، الذي توارى خلف أسلوب الشرط .

ومن الأساليب كذلك: أسلوب الأمر الذي أتى موجزاً ؛ ليدل على الشدة والحزم، مثل قوله : (اردده) في حديث : (أيكم فجع هذه؟ ..) ، ومنها: استخدام فعل الأمر المباشر نحو قوله: (أحسنوا القتلة ،.. وأحسنوا الذبحة) ، ومنها استخدام فعل الأمر مقترناً بلام الأمر في الحديث نفسه، في قوله : (وليحد.. وليرح) ، كأن استخدام لام الأمر تفيد الحاضر والغائب، وتؤكد على فعل الأمر السابق، وتوضح مفهوم الإحسان، وقد مر الحديث عن بيان هذه الأمور .

تنوع طرق البيان و الإبانة :

قد تنوعت أساليب البيان النبوي بتنوع الموقف النفسي؛ كما تنوعت -أيضاً - طرق البيان وسبل الإبانة ، وطرق النبي-ﷺ- كل فنون القول طبقاً لمتطلبات الموقف و مراميه، " والمتأمل في صحيح أحاديثه-ﷺ- يلاحظ أنه يكاد لا يخرج عن خمسة من فنون القول هي : الحديث المباشر ،الحوار، الخطبة، القصة، الكتابة، وهو في كل هذه الفنون لا يخرج عن السلك الذي ينظم قوله كله ، وهو الدعوة إلى الإسلام ، وما يتفرع عليها، وهذا التقسيم البياني للحديث لا يعني أنه نمط من القول كان متعارفاً عليه في عصره، أو ما سبقه ، ولكن الذي أعنيه بذلك أن تلك الأقسام

موجودة في حديثه -صلى الله عليه وسلم- وإن كان لم يقدم كل قسم منها تحت اسمه منفصلاً عن غيره من الفنون البيانية؛ فالرسول -صلى الله عليه وسلم - قصد الإبانة أولا وأخيراً ، واتجه بفطرته البيانية الخالصة إلى الفن الذي يتطلبه الموقف، ويستدعيه المقام ". (١)

والغالب على الأحاديث النبوية التي تتناول مشهد الطير، هو الأسلوب التقريري المباشر، وذلك؛ لأن أغلب الأحاديث التي تحدثت عن الطير كانت تعالج أمراً ما يتعلق بتكليف شرعي ، أو بصورة بيانية تتضمن تكليفاً شرعياً -أيضاً- مشفوعاً بترغيب أو ترهيب.

" والحديث المباشر في بيانه ذلك الحديث الذي يوجهه إلى السامعين ؛ ليعالج به أمراً مباشراً، يصرح به، ويكشف -ﷺ- من أول الأمر عنه. ويلاحظ أنه -ﷺ- في هذا اللون من الحديث لم يكن يسير على وتيرة واحدة ، بل كان له في كل موقف أسلوب ، وله في كل موضوع منهج، يقع عليه بفطرته؛ فيخرج حديثه نسقاً فريداً يتلاءم مع المقام الذي قيل فيه، ومن ثم أصبح كل حديث كأنه فن قائم بذاته ، يجتذب نفوس من يتلقونه إليه ، ويحتفل به كل من يسمعه، دون أن يشعر بملل من تكرار الكلام، أو تكرار الموضوع .." (٢)

وحتى لا تكتسي الأساليب بجفاف الأساليب التقريرية أو الأساليب الإنشائية في مقام التعليم والتهذيب والتبليغ؛ يجد المتأمل في بيان النبوة تداخلاً ملحوظاً لكل أساليب البيان، وطرق القول، فعلى سبيل المثال نجد ارتباط أسلوب الشرط بالحوار في مقام الترغيب أو الترهيب، ومنه في مقام الترهيب قوله -ﷺ- : (من قتل عصفوراً بغير حقها سأله الله -عز وجل- يوم القيامة، قيل يا رسول الله فما حقها؟ قال: أن يذبحها.... الحديث) فقد وظف النبي -ﷺ- أسلوب الحوار من خلال حديثه

(١) تأملات في البيان النبوي ، د / إبراهيم عوضين، ص٢٣، ٢٤.

(٢) تأملات في البيان النبوي ،ص ٢٥

الرمزي الذي يثير المتلقي، ويستحثه على التساؤل، فضلاً عن اختيار (من) في البدء، وغير ذلك من جماليات الحديث التي مر الوقوف عليها ، ولا يخفى أن أسلوب الحوار الذي يتخلل الحديث مناسب لأسلوب الترهيب الذي يستلزم انتباه المتلقي وجذبه وتشويقه بصورة تجعله يتلقى الإجابة بكل حرص فتخالط شغاف قلبه.

" الحوار من أهم وسائل تقرير المعاني، وتثبيتها في النفس، وترسيخها في الوجدان ، بحيث يكون المعنى في الحوار متبادلاً بين المتحاورين، فكل منهما يكون مهيئاً لتلقيه ، ومعرفة الإحاطة به، وقد كثر الحوار في الحديث النبوي الشريف بين النبي–ﷺ– والصحابة، – رضوان الله عليهم – وكانت غاية الصحابة من محاورة النبي –صلى الله عليه وسلم– : العلم والمعرفة، أن يتعلموا ويعرفوا فيلتزموا ويعملوا بمقتضى ما تعلموه، مستجيبين لله ولرسوله ، وكانت غاية النبي– صلى الله عليه وسلم– من محاورة الصحابة – رضي الله عنهم– تثبيت المعنى وتقريره وترسيخه في وجدانهم ، فالمعاني عندما تتأكد وتتمكن من النفوس ، وتترسخ في الوجدان، يشتد حرص المتلقي على ما هو خير، ويشتد إقباله عليه. " (١)

ونجد أسلوب الشرط الذي استعمله النبي –ﷺ– في الترهيب يستخدمه كذلك في مقام الترغيب، نحو قوله: (لو توكلتم على الله حق توكله ..الحديث) ؛ فالأسلوب واحد وقد استخدم في مقامين متنافرين متضادين ، لأن كل أسلوب وكل مقام قد تضافرت له من الوسائل اللغوية ما يعين على الإبانة عن المقصود.

ومن ذلك أيضًا استعمال أسلوب القصر بطريق النفي والاستفهام في مقام الترهيب ، نحو حديث عمرو بن العاص –رضي الله عنه– قال : (لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب ....) ، وذلك؛ لأن الموقف يستدعي تأكيد الكلام بطريق القصر الذي يفيد التأكيد القوي المتناسب مع الإنكار الشديد ؛ حيث انتزع

(١) من البيان النبوي الشريف: تأملات بلاغية في الهدي النبوي، أ.د/ بسيوني فيود، ص١٦٩، ط١، ١٤٤٠هـ–٢٠١٩م ، مؤسسه المختار – مصر.

النبي –ﷺ–هذه الصورة من خلال المشهد المحسوس أمام الصحابة للغراب الأعصم الذي يعد وحيداً بين نظرائه، متفرداً بهذه الصفة؛ فليس بمستغرب أن يصعب على الصحابة تصديق هذا الأمر ؛ لذا؛ لزم التأكيد بطريق النفي والاستفهام. ومن ذلك ما أتى في مقام الترغيب في حديث عامر الرام حيث قال –صلى الله عليه وسلم –: (أتعجبون لرحمة أم بفراخها ؟ قالوا : نعم يا رسول الله، قال: فو الذي بعثني بالحق نبياً للّه أرحم بعباده من أم هؤلاء الأفراخ بفراخها) ، فمقام الترغيب –على الأغلب –لا يستلزم هذا التوتر اللغوي الذي يبدو في القسم، واختيار صيغة مناسبة للموقف(والذي بعثني بالحق نبيا)، كما يبدو كذلك في استخدام أفعل التفضيل التي تأتي في مقام الحجاج، ثم استخدام اسم الإشارة(هؤلاء)، وتكرار الأفراخ وفراخها، ولكن لما كانت رحمة الله –عز وجل– بعباده من الغيبيات، ولما كثرت آيات الثواب والعقاب، وأحاديث الترغيب والترهيب، كل هذا زاد من غموض رؤيه المسلم لهذه الرحمة ومقدارها ، فكان هذا التأكيد من النبي–ﷺ– لها على هذا النحو الوارد في الحديث.

وأحياناً يرد أسلوب النهي والتحذير موجزاً ؛ لأن الموقف يتطلب هذا ،ولا يتحمل فتح أبواب الاحتمال والتساؤل والشرح والتوضيح ، ومن ذلك قوله: – صلى الله عليه وسلم– :(لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا) ، وقوله: (لا طيره و خيرها الفأل .) إلى غير ذلك من تداخل الأساليب ، وتعاون طرق البيان في الإبانة عن المراد.

حسن الاستهلال:

اختلفت طرق الاستهلال في البيان النبوي؛ ولكنها اتفقت في تشويق السامع وإيقاظ ذهنه، وإثارة انتباهه، فنجد النبي–ﷺ– يخفف أو يكثر من وسائل التشويق والجذب حسب ما تقتضيه طبيعة الموقف وأهمية المراد . ومن ذلك :الاستهلال في الإشارة إلى تكليف شرعي، مثل حديث (خمس فواسق يقتلن ...) فاستهل بذكر

العدد الذي يثير الانتباه ، ثم أتبعه بذكر الوصف النكرة ؛ ليزيد من درجة الإثارة والتشويق، وإيقاظ الذهن لتلقي الخبر .

وفي بعض الأحاديث النبوية نجد المقام واحداً والأساليب متنوعة ، وفي بعضها الآخر نجد المقام مختلفاً والأساليب واحدة ، كل حسب ما يقتضيه السياق ، وطبيعة الموقف والمقام ، فنجد النهي مثل: (لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا.) ونجد النفي مثل: (لا طيرة ..) ، ونجد الترغيب والترهيب معاً يستعين فيهما النبي بأسلوب الشرط ، وينوع في الأداة والعرض ، حتى الأساليب المباشرة نجدها مناسبة في سياقها ، مشوقة للقارئ، تقدم لفكرة أو رؤية أو تكليف قد يصعب فهم أسراره ، مثل البدء بالتأكيد في قوله :- صلى الله عليه وسلم - : (إن الله كتب الإحسان ...) ، وقد مر الوقوف على جماليات الأسلوب في هذا الحديث .

جمال الأساليب :

فضلا عن وضوح أساليب البيان النبوي ، وقوتها ؛ اتسمت بجمالها ، وتفردها في استعمال البديع باقتدار، فقد سرت في أوصال البيان النبوي رياح الإيقاع المحبب ، التي أتت قوية مع كل المعاني الجادة، وهادئة رقيقة مع كل المعاني اللطيفة ، وقد ظهر الإيقاع في الأسلوب كما ظهر في اللفظة، وتعاونت طرق البديع على إثراء الأسلوب بجمال الإيقاع المكمل للمعنى المراد، والمعزز له بصورة تمثل النموذج الأعلى في توظيف البديع .

" والموسيقى في الحديث حلوة عذبة تنساب في الكلمة الحديثية، وفي الجملة الحديثية ، كما تنساب في الكلام النبوي .." (١)

والمتأمل في توظيف البيان النبوي للبديع ؛ يلحظ أن الدرس البلاغي والدرس اللغوي عامة بحاجة إلى مزيد من تأمل أسرار توظيف طرق البديع ، وأن دورها

(١) الحديث النبوي : مصطلحه - بلاغته- كتبه، د/ محمد الصباغ ، ص٩٢، ط٤، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، المكتب الإسلامي ، بيروت - لبنان .

لا ينحصر في كونها محسنات فحسب ، بل أحسب أن أسرارها في البيان النبوي أكثر من أن تحصى . وقد وقفت على ألوان جمال الأساليب من خلال المبحث السابق ، وأقتصر على بعضها فيما يلي :

منها الجناس، ومنه حديث: (يا أبا عمير: ما فعل النغير) ، فقد وظف الجناس بصورة جعلت الكلام يزداد وقعاً وطرباً وخفة؛ حتى يناسب الدعابة والتلطف في الكلام مع الصبي .

ومنها: الطباق مثل: حديث (خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم ..) ؛حيث أتى لضرورة ، وهي التأكيد على المعنى المراد .

ومنها المقابلة في حديث :(..تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً.) فأتت؛ لتؤكد المعنى في أفضل أسلوب وألطف إيقاع ، وأدق تعبير عن المعنى المراد ، فالحديث يدور حول معنى السعي مع حسن التوكل والتجرد من الحول ، والسعي قد أكده الطباق في: (تغدو – تروح) حيث السرعة والنشاط والخفة والاستمرار، ومما أكد معنى التوكل التعبير بقوله : (خماصاً – بطاناً) حيث ينقل الله – عز وجل – عبده من حال إلى نقيضه بقدرته وحكمته .

وقد يجتمع أكثر من محسن في حديث واحد ، فتتعاون جميعها على الإبانة عن معنى أو فكرة ، وذلك في مثل قوله –ﷺ- : (...اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك .) ؛ فقد اجتمع الجناس والطباق والسجع بصورة شكلت تناسباً إيقاعياً فريداً عزز المراد من الحديث ، فضلاً عن التماسك النصي الناتج عن تعاون مثل هذه الطرق في البيان .

ولعل السبب في اجتماع ألوان البديع في هذا الحديث – كما مرّ – هو قصد العناية بإيقاع الجملة حتى يسهل حفظها، وترديدها من قبل المسلمين في كل عصر؛ ليقينه–ﷺ– بأن تطلع الإنسان إلى معرفة الغيب، ورغبته في البحث عن المجهول من طبائعه التي سيصعب التخلي عنها كلية .

ومن ألوان الأساليب التي للجمال وبالجمال وسيلة وغاية : التكرار ، وقد شكل

ظاهرة في بيان النبوة لأسباب وأسرار يصعب حصرها، منها : التأكيد على المعنى، مثل : تكرار لفظ الإحسان بأكثر من صيغة في حديث : (إن الله كتب الإحسان ..فأحسنوا القتلة ....أحسنوا الذبحة .)؛ للتأكيد على قيمة الإحسان المطلق ، والتسوية فيه بين القتل والذبح على السواء .

ومن بديع التكرار : تكرار الفعل (بنى) في حديث: (من بنى مسجداً...بنى الله ...) ؛ حتى يغري بالأجر الذي جاء من جنس العمل ، وهيهات للتسوية بين بناء العبد ، وبناء ربه – عز وجل – .

ومن التكرار: تكرار الفعلين (راح – قرب) في حديث: (من اغتسل يوم الجمعة ...) – فضلا عن جمال أسلوب التدلي؛ ليؤكد على المعنى المراد، وهو التبكير ، ويؤكد على النتيجة (الأجر)؛ فيضع المتلقي في بؤرة الموازنة التي تفضي إلى الخيار الذي فيه صلاح دينه ودنياه.

ومما يسترعي الانتباه في توظيف البديع في البيان النبوي عامة ، ومشهد الطير خاصة : أن التناسب الإيقاعي بين الجمل كان غاية اتخذ النبي–ﷺ– تداخل طرق البديع المختلفة في بلوغها ، فكثيراً ما نجد التوازي والتناسب بين الجمل، لأسرار كثيرة أهمها التماسك النصي ، والتحام أجزاء النص ، وتداخلها وارتباطها ارتباطاً شديداً فريداً يؤثر في عقل وقلب المتلقي بمجرد أن يتجاوز أذنيه في طرب وخفة .

المطلب الثالث: التصوير

لا يخفى ما لأهمية التصوير الفني من قيمة تكسب الكلام عمقاً، وثراءً، وجمالاً ، فضلاً عن الإبانة المقترنة بغاية ترتبط بالسياق؛ لذا كان التصوير قوام الشعر وعماده، وأصل كل الفنون القولية،" الصورة الأدبية أصدق تعبير عما يجول في النفس من خواطر وأحاسيس، وأدق وسيلة تنقل ما فيها إلى الغير بأمانة وقوة ، وأجود موصل إلى الآخرين في سرعة وإيجاز ووفرة، والصورة أجمل وأنضر طريقة في شد العقل والخيال إليها، وربط الإحساس بها، وتجاوب المشاعر لها، وإحياء العاطفة، وسحر النفس. " (١)

تميزت الصورة في مشهد الطير في بيان النبوة بعدة سمات ، كان من أهمها :

- تنوع توظيف صورة الطير في البيان النبوي، فاعتمده النبي - ﷺ - في أهم المواقف التي حفل بها البيان النبوي ، مثل : التهذيب، والتعليم، والترغيب، والترهيب .
- أول ما يلفت انتباه المتأمل في مشهد الطير في البيان النبوي ، غلبة التشبيه عن بقية طرق البيان، وأحسب أن هذه الظاهرة ليست قاصرة على مشهد الطير؛ وإنما تشمل كل بيان النبوة. ولعل السبب في إيثار النبي-ﷺ- طريق التشبيه دون غيره؛ ما يميز أسلوب التشبيه من البيان، والتفصيل، والتوضيح، وقرب المأخذ في الوصول إلى الغرض، وهذا يناسب مقام الدعوة، وما يحفها من التهذيب والتعليم والترهيب والترغيب، بينما طرق البيان الأخرى كالاستعارة – مثلا – بحاجة إلى خيال خصب، وتذوق عال، وسرعة بديهة ، وطول تأمل لفهم مراميها ، وهذا قد لا يناسب عامة الناس الذين بعث إليهم النبي الكريم رسولاً -ﷺ- .

(١) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر ، د / علي علي صبح، ص٣٣، ط٢، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، المكتبة الأزهرية للتراث ، مصر .

ومن جميل ما قيل عن التشبيه وأثره: قول الإمام عبد القاهر : " أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكني ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يُعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع؛ لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة ، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ..." (١)

ولما كان توظيف الصورة في مشهد الطير بهدف التهذيب والتعليم أو الترغيب أو الترهيب ؛ كان التشبيه هو أول طرق البيان مثل أحاديث : (قر الدجاجة) ،و(لو توكلتم على الله) ، و(من اغتسل يوم الجمعة ..)، و(من بنى مسجداً)، و(لا يدخل الجنة من النساء ..)،و(لله أرحم بعباده من أم هؤلاء..) وغيرها .

ثم إنه –ﷺ– يحسن استعمال طرق البيان كل في حينه ، انظر إلى التشبيه في قوله –ﷺ– : (إن قلب ابن آدم مثل العصفور ...) ، والاستعارة في: (نهي المصلي عن نقرة الغراب) ؛ فالتشبيه أتى في مقام التربية والتهذيب ؛ بينما أتت الاستعارة في مقام الذم والنهي والتحذير من الفعل، وهي أبلغ في إثبات وجه الشبه من التشبيه ، فكان استعمالها أبلغ في مواطن الذم والنهي والتحذير؛ للتنفير من الفعل ، وكأن الذي يؤدي صلاته متسرعا عجولا يصبح غراباً جائعا يلتقط ما يجده ، ولا يخفى ما يوحيه الغراب من معان مختزنة في نفس كل عربي ، مستمدة من الموروث الاجتماعي ، مثل : الشؤم ، والسواد والقبح .

- انتزع النبي -ﷺ- صوره من البيئة بكل معطياتها، وكان – صلى الله عليه وسلم – خبيراً بمعطيات بيئته ، ليس بصفات الطير، وما يتميز بها كل نوع

(١) أسرار البلاغة ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه أبو فهر/ محمود شاكر ،ط١/ ١٤١٢هـ – ١٩٩١م ، ص ١٢١، شركة القدس للتوزيع – دار المدني بجدة – المؤسسة السعودية بمصر.

عن غيره ، وإنما بمعرفة ما يعلمه الناس، ولا يختلفون حوله . من هذه الصفات المحسوسة ، قر الدجاجة ، ونقرة الغراب، وقلب العصفور، وسعي الطيور ونشاطها، ومفحص القطاة، ورحمة الأم بفراخها، إلى غير ذلك من المشاهد المعلومة المحسوسة الملتقطة والموظفة بعناية فائقة، ودقة متناهية .

" وليست عملية التشبيه يسيرة؛ ذلك؛ أن الأديب يلجأ إلى مكنون معرفته، وصوره المختزنة التي تكوّن خياله ، ثم يقوم بعملية تنسيق فني تراعى فيه أوجه التقارب ، وإدراك خافي العلاقات ، واختيار ما تحسن من صور تحلو المعاني ، وتنقل الشعور إلى النفس حياً ممتازاً، وكلما زادت المعرفة بالكون وخفاياه؛ كلما برع التشبيه ، ولذا؛ تجد التشبيه القرآني في القمة لأن مُنزّله عليم خبير، ثم التشبيه النبوي لصفاء الفطرة المحمدية ، وذكاء العقل ، وإلهام النبوة، والتأثر بالقرآن . " (١)

- من سمات الصورة في البيان النبوي: أن النبي - ﷺ - يستعمل أكثر من وجه للمشبه به؛ فيستقصي سماته ليوظفها في مختلف المعاني ، حتى لنجد في مشهد الطير توظيفاً لصورة طائر واحد في مقامين متناقضين ، فالدجاجة يستعملها مرة في مقام الذم والتحذير، مثل: حديث الكهان: (فيقرها في أذن وليّه قر الدجاجة ..) ، ومرة في مقام الترغيب والتهذيب، مثل: حديث التبكير يوم الجمعة: (..فكأنما قرب دجاجة ..) ، وكذا الديك في التحذير والترهيب: (نقر الديك) ، والترغيب: (لا تسبوا الديك ..) وهذا من تمام البيان ، وكمال اللغة .
- ومما تميزت به الصورة في البيان النبوي: تنوع وجه الشبه بين المادي والمحسوس من المعاني ، فهناك صورة حركية، مثل: (نقرات الغراب) ، و: (قلب العصفور) ، وهناك صورة سمعية، نحو :(قر الدجاجة) ، وأخرى معنوية،

(١) التشبيه وسماته البلاغية ، د صباح عبيد دراز، ص١٢-١٣،ط١، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م، مكتبة وهبة – القاهرة- مصر.

مثل: (لله أرحم بعباده ..) ،و (لو توكلتم على الله ...) .

- أتت الصورة عضوية في مقامها ، مناسبة وملتحمة مع سياقها ، فاستعمل الغراب وهو نذير شؤم، ورمز للسواد والدمامة في صور مذمومة ومشؤومة، منها:السرعة الشديدة في أداء الصلوات المكتوبة، ومنها: دخول أكثر النساء النار، ومن ذلك : صورة العصفور؛ لتصوير تقلب قلب ابن آدم، لضعفه، وتقلبه، وكثرة حركته، ومنها: صورة الطير في سياق التوكل على الله– تعالى– دون بقية المخلوقات؛ لتكون – مع ضعفها – رمزاً للخفة والنشاط والسعي، ومنها: صورة قر الدجاجة في سياق الحديث عن الكهان والجن؛ فاستعان بمشهد رتيب وممل مزعج للدجاجة، وهو ترديد الصوت باستمرار عندما يلم بها ما يؤرقها، أو عندما تضع بيضها، وهذا مما يناسب سياق الجن والكاهن حيث الجهل والتسرع والخوف من النسيان ، والرغبة في التخلص مما قد علمه أو استرقه من سمع .

وجدير بالذكر: أن جمال الصورة قد ارتبط بتعاون كثير من العناصر اللغوية التي عززت دور الصورة في بلوغ مراميها، كان من أهمها : الألفاظ ، والأساليب ، والإيقاع ، وقد مر توضيح ذلك .

الخاتمة

وبعد هذا التطواف حول أدب النبوة ، أستطيع القول: بأنني قد توصلت إلى عدة نتائج ، كما أرغب في عرض بعد التوصيات على النحو الآتي :

أولاً: النتائج،:

- تبين من خلال البحث أنه قد تجاوزت رحمة النبي – صلى الله عليه وسلم – الآدمي إلى غيره من المخلوقات، وتجاوز النبي الحديث عن حقوق الطير، إلى الحديث عن ترهيب من يتغافل عنها، وتجاوز كفّ الأذى الحسي إلى النهي عن الأذى المعنوي ، وتجاوز النهي عن الأذى المعنوي إلى الدعوة إلى الاستئناس بالطير .
- كما تجلى أن مشهد الطير في البيان النبوي تنوع إلى ثلاثة أنماط: الحديث المباشر عن مظاهر الرحمة بالطير، والتكليفات الشرعية المتعلقة بالطير، وتوظيف صورة الطير لتقريب وتأكيد غيرها من المعاني .
- وتقرر أن التكليفات الشرعية التي تتعلق بالطير، مثل : الأمر بقتل بعض الطير أو النهي عن التطير والتشاؤم ؛ كان من باب الرحمة بالإنسان، وحفظ ماله ونفسه .
- قد وظف النبي الكريم صورة الطير في أكثر من مقام ، منها : التعليم، والتهذيب، ومنها: الترهيب، ومنها: الترغيب .
- اختلف مشهد الطير في الشعر الجاهلي عنه في البيان النبوي؛ وذلك لاختلاف نسق الكلام طبقاً لاختلاف أهدافه.
- تبين أن مشهد الطير في بيان النبوة هو صورة صادقة من صور بلاغة النبي – صلى الله عليه وسلم – تتجلى فيها أغلب ما يتجلى في بلاغة النبوة من سمات ، توصل إليها كل من أمعن النظر في هذا النسق الفريد من الكلام .

ومن هذه السمات:

* الوضوح والسهولة ، وقرب المأخذ في اختيار الألفاظ ، وانتقاء الأساليب ، واصطفاء الصور . اجتمع مع ذلك في:

الألفاظ :

*الدقة ، والألفة، والإيحاء ، وحسن الجرس ومناسبته للمعنى ، واختيار الصيغة الصرفية المناسبة للسياق ، والدقة في اختيار زمن الحدث .

في الأساليب :

*مراعاة الأسلوب لحال المخاطب وأجواء السياق؛ فجاءت الأساليب مناسبة للموقف النفسي، وتنوعت وتعاونت طرق البيان والإبانة عن المراد، فتداخل أسلوب الشرط مع الحوار، واختلف أسلوب الشرط بين مقام الترغيب ومقام الترهيب، وعزز أسلوب الترهيب بأسلوب القصر، وتعاون الإيجاز مع الأمر والنهي؛ ليعزز المعنى المراد .

*ومن سمات الأساليب كذلك: براعة الاستهلال؛ حيث حملت جميعها كل ألوان الإثارة والتشويق .

*ومن سماتها كذلك : الجمال النابع من التنويع بين الخبر والإنشاء، ومناسبة الإيقاع اللفظي والمعنوي للمعنى المراد، وقد أحسن النبي الكريم - ﷺ - توظيف المحسنات البديعية، وأبان – من غير تكلف – عن طاقاتها الكامنة، وقدراتها العالية في إثراء المعنى.

في الصورة :

– كان الأغلب على مشهد الصورة : استعمال النبي - ﷺ - لعدسة فن التشبيه بصورة لافتة ، وإيثارها على غيرها من طرق علم البيان، ولعل ذلك يرجع إلى ما يتميز به التشبيه من تفصيل، وبيان، وتوضيح، ومؤانسة للمعنى المراد، وكل هذا يناسب مقام الدعوة والتعليم أكثر من غيره من طرق البيان، كما جاءت

صور النبي - ﷺ - منتزعة من بيئته، واضحة قريبة المأخذ، وأبانت عن خبرة النبي - ﷺ - بمعطيات البيئة ، وحسن توظيفه لها؛ حتى قلّب المشبه به على أكثر من وجه واستعمله في أكثر من مقام .

- تنوعت صور البيان النبوي بين الجانب الحسي والمادي، كما تجاوزت الجانب المعنوي إلى الجانب النفسي، كما أتت الصورة عضوية في مقامها، متوافقة مع سياقها ، وساعدها في ذلك تعاون عناصر اللغة .

ثانياً: التوصيات :

- **أولا:** عناية الدراسات الأدبية والبلاغية بتتبع البيان النبوي، والإبانة عن سماته وأسراره، ووجوه إعجازه اللغوي؛ لاتخاذها طريقاً من طرق التثبت من صحة الأحاديث المنسوبة إلى النبي –صلى الله عليه وسلم – عناية تتجاوز ما هي عليه الآن، وتتناسب مع الهجمات التي تنال من كتب الحديث، وتشكك فيها .

- **ثانياً:** التداخل العلمي، والتكامل المعرفي بين الدراسات التي عُنيت بالبيان النبوي أصبح ضرورة علمية، ومسؤولية دينية؛ حتى تلتقي، وتتفق، وتتوافق على بيان وجوه إعجازه التشريعي واللغوي؛ لأن اللغة وأسرارها التي تنال بالتذوق الأدبي والفني هي السبيل الوحيد لفهم كلام النبي - ﷺ - على وجهه الصحيح ، ومن قبله فهم وجوه إعجاز القرآن الكريم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم .**
- أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، محمود موسى حمدان، ط٢، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م ، مكتبة وهبة ، القاهرة .
- أسرار البلاغة ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه: أبو فهر/ محمود شاكر ،ط١/ ١٤١٢هـ – ١٩٩١م ، شركة القدس للتوزيع – دار المدني بجدة – المؤسسة السعودية بمصر.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، د/ مجيد عبدالحميد ناجي ، ط١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان.
- أسس النقد الأدبي عند العرب ،د/ أحمد بدوي ، ط٦، ٢٠٠٤م ، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر .
- إعجاز البيان النبوي ، د/ عبدالحفيظ فرغلي، ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م ، دار الفكر العربي – مصر .
- إنسانيات محمد ، خالد محمد خالد، ط١، ٢٠٠٤م، المقطم للنشر والتوزيع – مصر.
- البلاغة النبوية ، د محمد رجب البيومي ، ط١، ١٤٠٧هـ – ١٩٧٨م ، دار الوفاء ، المنصورة – مصر
- بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين ، د/ عوده خليل أبو عوده ، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م ، دار البشير، عمان – الأردن .
- البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر ، د / علي علي صبح، ط٢، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، المكتبة الأزهرية للتراث ، مصر .

- تأملات في البيان النبوي، د/ إبراهيم عوضين، ط٢، ١٩٨١م ، مطبعة السعادة، مصر.
- التشبيه وسماته البلاغية، د صباح عبيد دراز، ط١، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م، مكتبة وهبة – القاهرة- مصر.
- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د/ كمال عز الدين، ط١-١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م ، دار اقرأ ، بيروت – لبنان.
- الحديث النبوي : مصطلحه – بلاغته- كتبه، د/ محمد الصباغ ، ط٤، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م ، المكتب الإسلامي ، بيروت – لبنان .
- الحيوان للجاحظ ، تحقيق محمد باسل عيون السود،ط٢-١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية –بيروت- لبنان.
- دلالة الأساليب الإنشائية في القرآن الكريم : النداء أنموذجاً ، رسالة دكتوراه مخطوطة للباحثة / سعاد دزدام ، جامعة وهران بالجزائر ، ٢٠١٨_٢٠٢٠م.
- ديوان ابن الرومي ، شرح الأستاذ / أحمد حسن بسج ، ط٣، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان . والمآقط .
- ديوان امرئ القيس، تحقيق| عبدالرحمن المصطاوي، ط٢-٢٠٠٤م، دار المعرفة ، بيروت- لبنان .
- ديوان المثقب العبدي ، شرح وتحقيق / حسن كامل الصيرفي، ط١، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة – مصر .
- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية، حققه شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط،ط٣، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان.
- سقط الزند، دار بيروت، دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ -١٩٥٧م .

- السمات البلاغية في بيان النبوة، د/ صباح عبيد دراز، ط١- ١٤٢٥هـ- ٢٠١٤م ، مكتبة وهبة – مصر .
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء الكتب العربية – حلب –سوريا.
- سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية – صيدا –لبنان.
- السنن الكبرى ، النسائي، تحقيق حسن عبدالمنعم شلبي، ط١|١٤٢١- ٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.
- سنن النسائي، من عمل الشيخ عبدالفتاح أبو غدة ، ط٢، ١٩٨٦م، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب – سوريا.
- شرح السنة لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، حققه: على محمد معوض ، عادل أحمد عبد الموجود ،ط ١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
- شرح المشكاة للطيبي ، تحقيق د. عبدالحميد هنداوي، ط١- ١٩٩٧م، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة.
- شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق / د عبد العلي عبدالحميد حامد ، ط١- ٢٠٠٣م، مكتبة الرشد بالرياض – المملكة العربية السعودية.
- صحيح البخاري ، تحقيق | د مصطفى ديب البغا، ط٥، ١٩٩٣م، دار بن كثير ، دمشق _ سوريا .
- صحيح مسلم، تحقيق| أحمد بن رفعت حصاري، وآخرين، ط١٤٣٣،١م، ، دار طوق النجاة – بيروت – لبنان.
- صورة أمومة الحيوان في الشعر الجاهلي ، رسالة ماجستير مخطوطة للباحث/ جوهر محمد الشهري ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م .

- صورة أمومة الطير في الشعر الجاهلي بحث مخطوط لنيل درجة الماجستير، إعداد الباحثة أماني بنت سعود بن خيشان القرشي، جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية، ١٤٣٦هـ.
- صورة الحيوان والطير في القرآن الكريم : دراسة بلاغية ، إعداد الباحثة / أحلام عبدالله سليمان صالح ، إشراف /أ.د خليل عودة ، رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة النجاح الوطنية – نابلس– فلسطين ، ٢٠١٢م .
- الطير في الشعر المصري المعاصر : قراءة في العلاقة بين الفطرة والتوظيف الفني ، عماد حسيب محمد ، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٦م.
- فتح الباري لابن حجر، صححه وأخرجه ورقم أبوابه| محمد فؤاد عبدالباقي ، محب الدين الخطيب، ط١|١٣٧٩هـ، دار المعرفة –بيروت–لبنان.
- لسان العرب لابن منظور، ط٢٠١٤م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مخاطبة الطير في الشعر العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري : رسالة ماجستير مخطوطة للباحث / حمد بن علي الحسيني الهاشمي ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م .
- مسند الإمام أحمد ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين ، ط١، ٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة– بيروت– لبنان .
- المشهد في النص الشعري: من الحضور اللغوي إلى التشكيل الذهني، د توفيق مساعدية، مجلة العلوم الإنسانية/ عدد٥١| ٢٠١٩م، الجزائر.
- من البيان النبوي الشريف: تأملات بلاغية في الهدي النبوي، أ. د/ بسيوني فيود، ط١، ١٤٤٠هـ– ٢٠١٩م ، مؤسسه المختار – مصر.
- من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف دكتورة فتحية محمود العقدة،ط١٤١٤،١_ ١٩٩٣م، مطبعة الأمانة – مصر.